قد أفلح من تزكى

دُرَرُ الحَقَائِقِ

مِن مَعِينِ الفُؤَادِ

عثمان نوري طوبَّاش



دار الأرقم





إسطنبول ١٤٣٨هـ / ٢٠١٦م

إسطنبول: ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٦م

اسم الكتاب: Gönül Dergâhından Hakîkat İncileri

اسم الكتاب بالعربية: دُرر الحقائق مِن مَعين الفُؤاد

تأليف: عثمان نوري طوبَّاش

مراجعة وتصحيح وتدقيق: أحمد حمدي / إياد عمار

ترجمة: زيد التركماني

تصميم وتنضيد: حسام يوسف/ أحمد طه بيلغين.

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

ISBN: ٩٧٨٦٠٥٣٠٢٢٢٩٩

Language: Arabic

العنوان:



Adres : İkitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 3/60 - C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY
Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)
Faks : +90 212 671 07 48
E-mail : info@islamicpublishing.net
Web site : www.islamicpublishing.net

دُرَرُ الحَقَائِقِ

مِن مَعِينِ الفُؤَادِ

عثمان نوري طوبّاش

دار الأرقم

يقول سيدنا

علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

«إن القلوب تملُّ كما

تملُّ الأبدان، فابتغوا لها

طرائف الحكم».

«أيقظوا القلوب الغافلة

بالحكمة حتى تطمئن وتسكن».

مُقَدِّمَة

الحمد لله سبحانه وتعالى الذي خلقَنا من عدم، وأكرمنا بما لا يُحصَى من النعم، وجعلنا خير الأمم.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ، أسوتنا ومرشدنا في هذه الحياة الدنيا، وعلى آل بيته الأطهار وأصحابه الأخيار...

قرَّاءنا الأعزَّاء...

حينما نقلب النظر فيما حولنا هذه الأيام، نجد أنه ثمة سعي حثيث لتغيير نظرة الناس إلى هذه الحياة الدنيا، حتى يرونها الحياةَ الحقيقية السرمدية، وكأن لا آخرة بعدها، وفي هذا السعي تتخذ الأفكارُ المجردة من الإيمان كالليبرالية والمادية والرأسمالية وسيلة لتحويل قناعات الناس ورؤاها، وما يؤلم الإنسان ويحز في نفسه أنَّ تلكم الأفكار المسمومة ينفثها التلفاز و(الإنترنت) وغيرهما الكثير والكثير من وسائل النشر والاتصال الحديثة، وتطالع الناس في كل زاوية من زوايا الحياة اليومية صباح مساء.

ولذلك بتنا نرى الفقرَ إلى الروحانيات والعوز إلى الإيمان يشيع في كل مكان، حتى في المجتمعات التي تتربع على عرش الرفاهية المادية والتقدم المادي، فإن الإنسان إذا لم يستطع حلَّ لغز الحياة، ومعرفةَ حكمة الوجود، واستشفاف سر الموت وما وراءه، وغيرها من الموضوعات الجوهرية على ضوء الحقائق

الإلهية، فستتحول غفلته في هذه الحياة واستغراقه في ملذَّاتها سعادةً وطمأنينة.

ووا أسفاه على تلك العقول والأفئدة التي تميل مع رياح العولمة الطاغية حيث مالت، ولهذا كله فلا بد أن نوفي بالدَّين الذي يوجبه علينا إيماننا ووجداننا، دَين الأخذ بيد الإنسانية التي ألقت بنفسها في دوامة الدنيا، فصارت كجذوع الأشجار حينما تجتثُّها السيول؛ وفي أعناقنا كذلك دَين الحفاظ على ما اؤتمنا عليه من الكتاب والحكمة. فينبغي لنا تبيين الكتاب وشرح الحكمة وتعريف الحضارة والسعادة الحقيقية وذلك بإظهار الوجه الحقيقي للإسلام.

وأما إن سألتم عن تلكم الروح التي ستُحيي المجتمعات التائهة في هذه الأيام، فليست روح أولئك الذين يؤثرون أنفسهم على غيرهم، ويدَّعون العلم، وينكبُّون على كتب الفلسفة الجِسام؛ بل إنها روح المؤمنين العارفين الذين تدبَّروا وتفكروا في الحِكَم الإلهية المعروضة في القرآن والكون والإنسان، فكانوا كشمس الرحمة والطمأنينة تُشرِق على القلوب التي ما فتئت تائهة في ظلمات الجهل والأوهام، وترى الناس اليوم يبحثون عن السعادة في سوق السفالة والتعاسة لأنهم حُرِموا من تلك الروح، فصار كل واحد منهم كرجل آليٍّ تتحكَّم بإرادته فلسفاتٌ متهافتة، و صرعات جديدة لا قيمة فيها ولا نفع...

مع أن الإنسان ليس كغيره من المخلوقات، فلقد أكرمه الله بخصال سامية ومنَّ عليه بنعمة العقل، فعليه إذًا أن يكون دائم

التفكر والتدبر، فيسأل نفسه: لم أتيت إلى هذه الدنيا؟ وفي مُلكِ من أعيش؟ ومِن أين جئت وإلَى أين المصير؟...

عليه أن يتفكَّر في نفسه، إذ لم يكن شيئًا مذكورًا ثم خُلِق من ماء دافق في أحسن تقويم، وعليه أن يتساءل: لماذا أعيش؟ لماذا سأموت؟ ماذا سيحدث بعد الموت؟، وعليه أن يرى عجائب صنع الله ومظاهر قدرته وتجليات عظمته وحكَمه الكثيرة في هذا الكون الفسيح، فالكون أشبه بمتحف يعرض مظاهر قدرة الله وبديع صنعته وأسرار خَلْقه وحِكمته؛ لكن لمَن يرى ويسمع من ذوي الألباب والبصائر...

يقول الشيخ سعدي الشيرازي رحمه الله:

«إن القلوب العارفة ترى في ورقة الشجرة ديوانًا يصف معرفة الله، أما القلوب الغافلة فلا تكاد ترى في الأشجار كلها ما يراه العارفون في ورقة واحدة».

فعلى الإنسان أن يُرهف السمع إلى ما يحتويه هذا الديوان من بيان مسموع وغير مسموع، ويقرأ الرسائل الربانية في منظومة الكون ويعتبر بها.

والأهم من ذلك كله أن يقرأ بعيون قلبه الرسائل الربانية التي تخبرنا بالغاية الأصلية لوجودنا؛ أي ذلك القرآن الكريم، وكلما قرأَ فهمَ أن المولى جل جلاله لم يخلق هذا الكون عبثًا، بل خلقه بالأسرار والحِكَم الكثيرة، لذلك تقع على عاتقنا مهام عظيمة في دنيا الامتحان التي نعيش فيها.

أما في أيامنا التي صار فيها هوى النفس مقدما على كل ما سواه، باتت أهم قضايا الإنسان- مع الأسف- خارج نطاق تفكيره، وما عاد الإنسان يسعى ليطلع بالقدر الكافي على موضوع الحياة والموت والقبر والميزان والصراط والجنة والنار، وما تقتضيه هذه الموضوعات من حقائق ينبغي معرفتها. وهذا ما يزلزل القلوب حتى يجعلها لا تعي معاني السعادة ولا الطمأنينة.

من أجل هذا كله أردنا أن نقدِّم لكم أعزَّاءنا القرَّاء نفحات من الحِكم والحقائق- التي يحتاجها الإنسان اليوم- على شكل رسائل قصيرة، استقيناها- على قدر طاقتنا- من القرآن والسنة، ومن عِلم أولياء الله وعباده الصالحين، ورغبنا أن تكون (درر الحقائق) هذه، التي كانت كل واحدة منها خلاصة مقالة، وسيلةً لطمأنة القلوب وتحريض العقول على التأمل والتدبر.

اللهم أكرمنا أن نرى الحياة والكون بنظر العبرة والمحبة والحكمة، واجعلنا نلقاك بقلب سليم وإيمان راسخ لا يلين بعد عمر نقضيه بالأعمال الصالحة يا رب العالمين.

آمين![١]

عثمان نوري طوبَّاش
آذار/ مارس ٢٠١٥
إسطنبول- أُسكُدار

١ أشكر هنا السيد محمد عاكف غوناي والسيد إبراهيم حقي أُزون لما بذلاه من جهد في إعداد هذا الكتاب، وأرجو الله تعالى أن يكون سعيهما صدقة جارية في ميزان أعمالهما.



معرفة سيدنا محمد ﷺ بالقلب

إن أردنا تشبيه سيدنا محمد ﷺ بشيء، فليس ثمة شيء أجمل من الوردة كي نشبهه به.

وأهم شيء نتعلَّمه في مدرسة الحياة هذه أن نعرفَ سيدنا وحبيبنا محمدًا عليه الصلاة والسلام، ونقدِرَ على الاقتداء به إيمانًا، ونكونَ كقطرة في بحر أخلاقه عليه الصلاة والسلام.

وعندما يبدأ المؤمن بالشعور بأحاسيس سامية أمام جلال قدرِه وعظمة شأنه عليه الصلاة والسلام، يكون في طريق الاقتداء به والتلذذ بمحبته.



لا قيمة لشيء دون معرفة رسول الله ﷺ

إن أهمَّ خطوة في طريق العبودية لله تعالى إدراكُ رسول الله ﷺ والتعرُّفُ إليه.

فإن لم نفهمه، ولم ندركه، ولم نسِر على هديه، ولم نتأسَّ به، فلن يكتمل إيماننا، ولا فهمنا للقرآن، ولن نعبد الله ﷻ حقَّ العبادة...



كم نُشْبِهُ رسول الله ﷺ؟

إن الروحانية التي كانت في مجلس النبي ﷺ أشبه بروضة من رياض الجنة، تُزيِّنه أجمل الورود وأندرها وأزكاها عبقًا، فهل تهبُّ علينا نفحات ذلك البستان أو نحاول التعرض لها؟

يا ترى، كم تشبه حياتنا الأسرية حياته، وعلاقاتُنا التجارية والاجتماعية علاقاته؟.

لقد كان همُّه عليه الصلاة والسلام نجاةَ أمته، فهل نشعر نحن بالفقراء والمساكين والعاجزين واليتامى؟

وبُعِث عليه الصلاة والسلام متمِّمًا لمكارم الأخلاق، فهل نمثِّل نحن- أبناء أمته- طلاقة وجه الإسلام، وروحانية هذا الدين المبين وعظمته؟



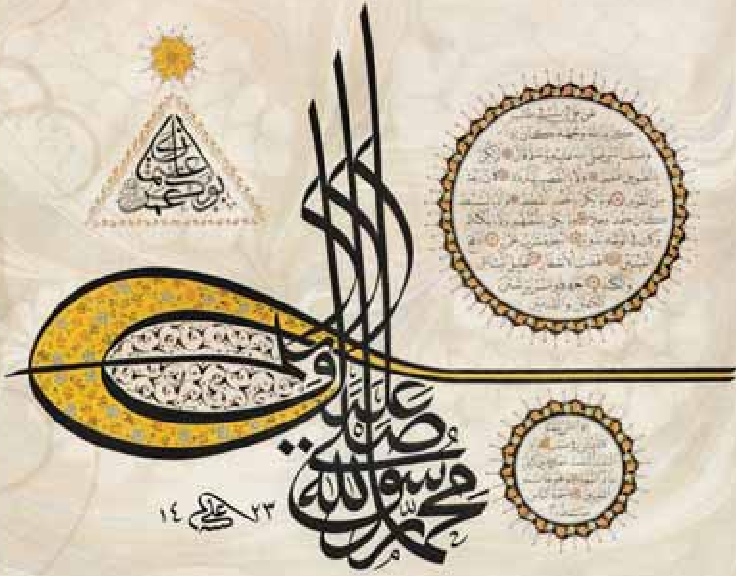
مع مَن نكون؟

يقول رسول الله ﷺ:

«المرء مع مَن أحبَّ». [البخاري، الأدب، ٩٦]

فعلينا أن نتفكر في مقدار تعلق قلوبنا بالله ﷻ وبرسوله ﷺ وبأحبابهما؟

فيا ترى، كم تتعلق قلوبنا بالرغبات النفسانية؟ وكم تميل إلى أعداء الله ورسوله ﷺ، وإلى مغريات الذنوب ومكائد الشيطان وحيله؟



معرفة النبي ﷺ ورؤيته والاستماع إليه

إن عرفناه اليوم سيعرفنا غدًا يوم الحشر، وإن ارتقينا إلى حال نراه فيها فسيرانا هو أيضًا، وإن استمعنا إليه فسيسمع آهاتنا وأنَّاتنا.

فلنكن له تابعين ليكون علينا شهيداً ولنا شفيعًا، كما قال الله تعالى:

﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]



القسطاس

«يا بشيري، يا منقذي، يا سيدي، يا نبيِّي..

فِداكَ كلُّ قسطاس لا يوافق هديَك، ولو كان الحياةَ نفسها!»

نجيب فاضل قيساكوراك



الوفاء للنبي ﷺ

فلنُلقِ نظرة على وفائنا لرسول الله ﷺ:

أي رغبة دنيوية تركناها في سبيل تحقيق رغبته؟

كم اهتممنا بأمور أمته المعنوية والإيمانية، وبحاجاتها المادية والظاهرية؟

هل سعينا لإيقاف الانحطاط الشديد الذي تنحدر إليه أمته في دينها وإيمانها وأخلاقها؟



أَعندنا أعمال نلقى بها الله ﷻ؟

كان الفضيل بن عياض رحمه الله يحاسب نفسه، فيقول:

«تريد أن تسكن الفردوس، وتجاور الرحمن في داره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، بأي عمل عملته؟ بأي شهوة تركتها؟ بأي غيظ كظمته؟ بأي رحمٍ قاطعٍ وصلتها؟ بأي زلة لأخيك غفرتها؟ بأي قريب باعدته في الله؟ بأي بعيد قاربته في الله؟». [إحياء، جـ٢، ص١٦٠]



ألياف الحبل

يبيِّن عبد الله بن الديلمي رحمه الله أهمية الارتباط بالسُّنَّة بتسليم تام، فيقول:

«أول ذهاب الدين تركُ السُّنة، يذهب الدين سُنَّةً سُنَّةً، كما يذهب الحبل قُوَّةً[1] قُوَّةً». [الدارمي، المقدمة، ١٦]

فخروج السُّنن من حياتنا واحدة تلو الأخرى يجعل حبل نجاتنا في الآخرة كخيط الحرير في ضَعفه، والعياذ بالله.

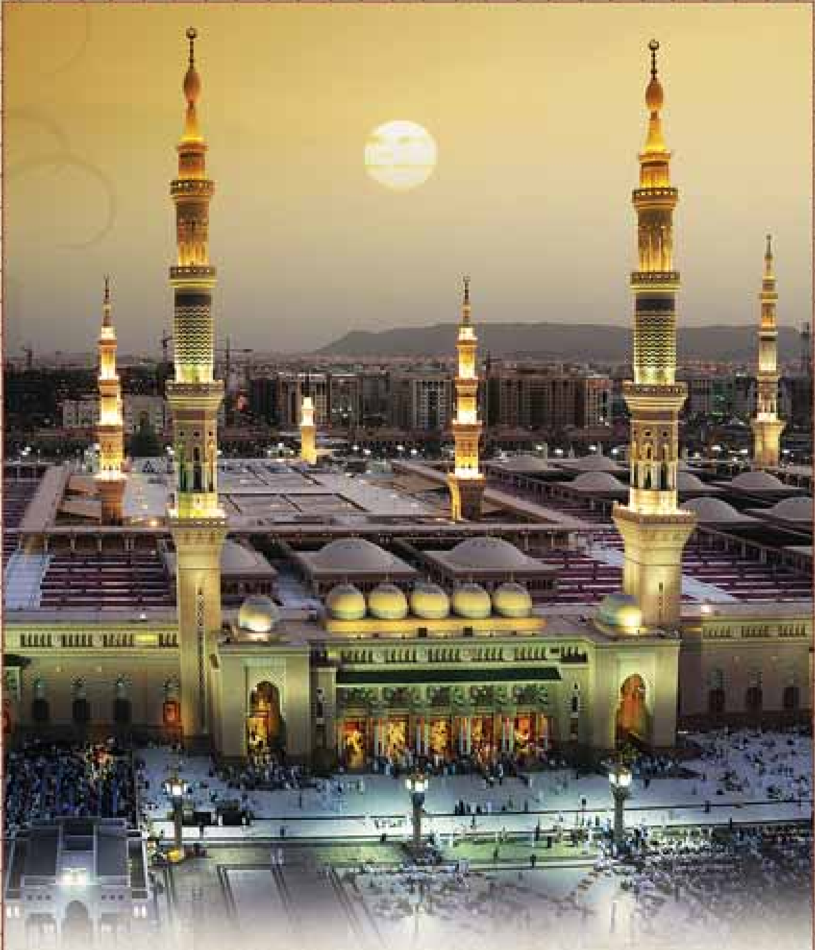
---

١ قوة الحبل: ليف الحبل.



قوة إيمان الصحابة رضي الله عنهم في اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم

لما صار حبُّ الله ورسوله متربِّعًا على عرش قلوب الصحابة الكرام، تحوَّل المجتمع الجاهلي إلى مجتمع فاضل يربِّي رجالًا أفذاذًا، يقتدي بهم البشر في الرحمة والفضيلة والإنسانية، وصار الأإخوة في الدين كحال اليدَين تغسل إحداهما الأخرى، وغابت عن مجتمع الصحابة مظاهرُ الترف والرخاء والنهم والاستهلاك الفائض، لأنهم لم ينسوا يومًا أنهم إلى الفناء صائرون، فعاشوا حياتهم مدركين أن النفس التي بين جنبيهم إلى القبر يوما مآلها.



المعجزة الحقيقية

يقول شهاب الدين القرافي الذي يُعدُّ من المشهورين في إرساء نظام الحقوق في الإسلام:

«لو لم تكن لرسول الله ﷺ معجزةٌ لكفاه- في إثبات نبوته- الصحابة الكرام الذين ربَّاهم».



حاجة الناس
إلى نفحات رحمته ﷺ

لقد نشر نبيُّنا المحبةَ في أمته وكان يهتم بأمرها، ويعين المحتاجين والأرامل والثكالى، فربَّى بذلك مجتمعًا من الصحابة أحبوه أكثر من أنفسهم وأموالهم.

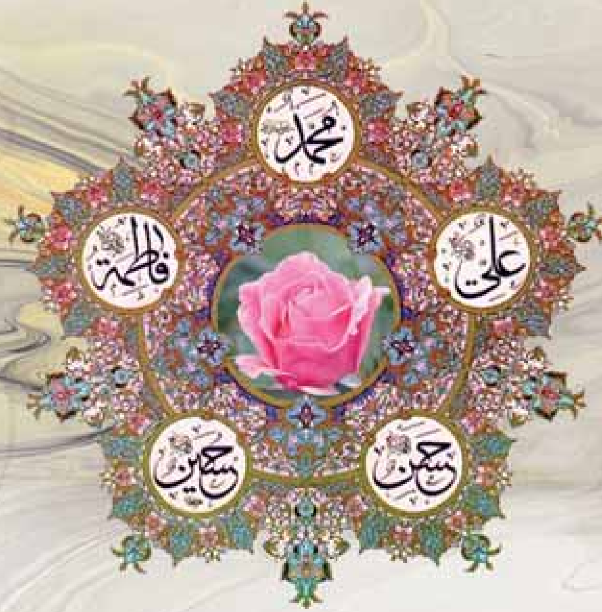
ولقد استطاع نبينا ﷺ برحمته وحكمته أن يصلح المجتمع الجاهلي الفاسد، ويغيِّره إلى مجتمع السكنية والسعادة، فكذلك نحن اليوم نحتاج إلى نفحات رحمته تلك، كي ننقذ البشرية، ونوصلها إلى بر الطمأنينة والسعادة.



حُبُّ الله ورسوله

لم يطغَ أي حبٍّ في قلوب الصحابة الكرام على حُبِّ الله ورسوله؛ لا حبُّ المال والمُلك، ولا حبُّ الأولاد، ولا حتى حبُّ النفس... فأنواع الحبِّ هذه ستبقى في الدنيا، أما حبُّ الله ورسوله فهو بضاعة العبد لسعادته الأبدية.

فطوبى لأولئك المؤمنين الذين جعلوا حبَّ الله ورسوله فوق كل شيء، ولم يغتروا برياض الدنيا وورودها الخدَّاعة!



أهل البيت

رضوان الله عليهم جميعاً

أهل البيت هم الذين رأوا الجمال النبوي عن قرب؛ أي عاينوا النور في وجهه عليه الصلاة والسلام، والفصاحة في كلامه، واللطافة في حركاته، والبلاغة في بيانه. لقد كانوا أحبَّ الناس إلى النبي لأنهم تخلَّقوا بأخلاقه، وتربوا في ظلال نظره المبارك.



سيدنا
أبو بكر الصديق رضي الله عنه

لقد نسي سيدنا أبو بكر رضي الله عنه نفسَه حينما فاض قلبه بحب الله تعالى طوال عمره، ولم يعرف لذة الحياة إلا بوجود رسول الله ﷺ، لذلك كان يعيش حالًا من الاستغراق الروحاني مختلفة في كل مرة يرى النبي ﷺ. وبدل أن يرتوي من حبِّه للنبي، ويُذهِبَ ظمأ شوقه أثناء صحبته، فإنه كان يزداد حبًّا له وشوقًا إليه.



سيدنا عمر رضي الله عنه

لقد كان سيدنا عمر قبل إيمانه مثالًا للإنسان الجاهلي الذي لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلًا، لكنه لمَّا آمن بالله سبحانه وتعالى صار رقيق القلب متحليًا بالإيثار والحكمة، ومضرب المثل في العدالة والفضيلة، وتلاشت شخصية عمر القاسية الفظة، وصار سيدًا تفيض مُقلتاه بالدموع خشيةً من الله عز وجل، ويمتلئ قلبه رحمة ورأفة، وغدا يفكر في سبيل سعادة الأمة دائمًا، ويشعر بالمسؤولية الكبيرة المُلقَاة على كاهله.



سيدنا عثمان ﵁

لقد كان سيدنا عثمان ﵁ عالمًا عارفًا سخيًّا، رقيق القلب لين الطبع، حييًّا وقورًا، متواضعًا محبوبًا، وكان أشبهَ الصحابة خُلقًا بالنبي ﷺ.

واستُشهِد عثمان ﵁ مظلومًا على يد العصاة وهو يتلو القرآن الكريم، فسالت دماؤه المباركة فوق المصحف الشريف عند قوله تعالى:

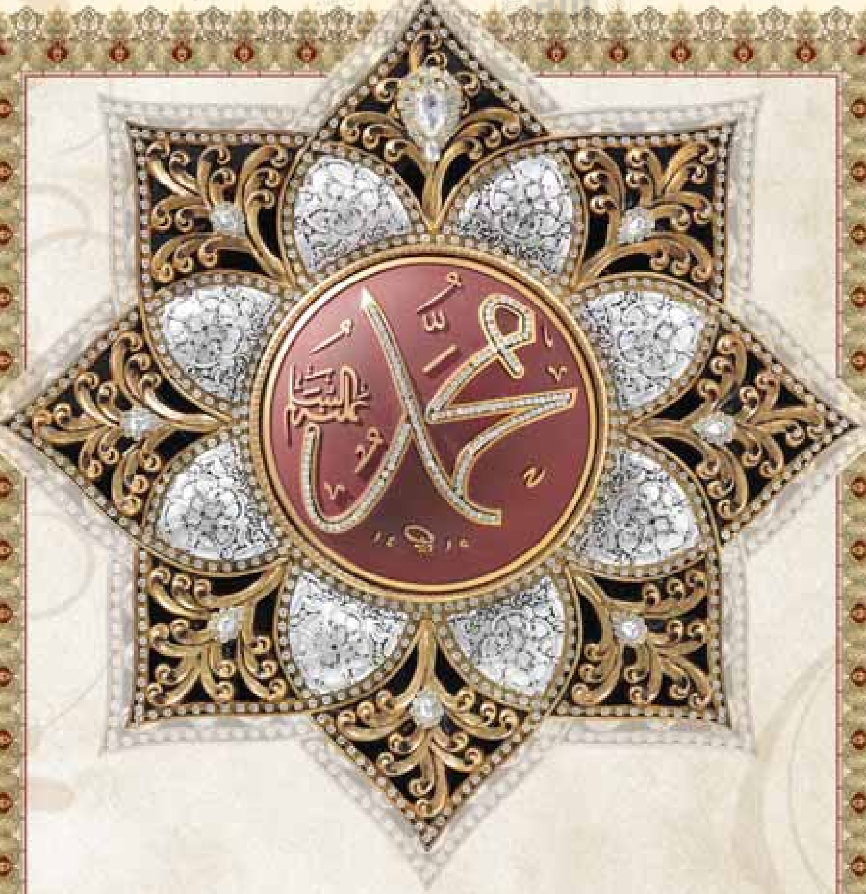
﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]



سيدنا علي رضي الله عنه

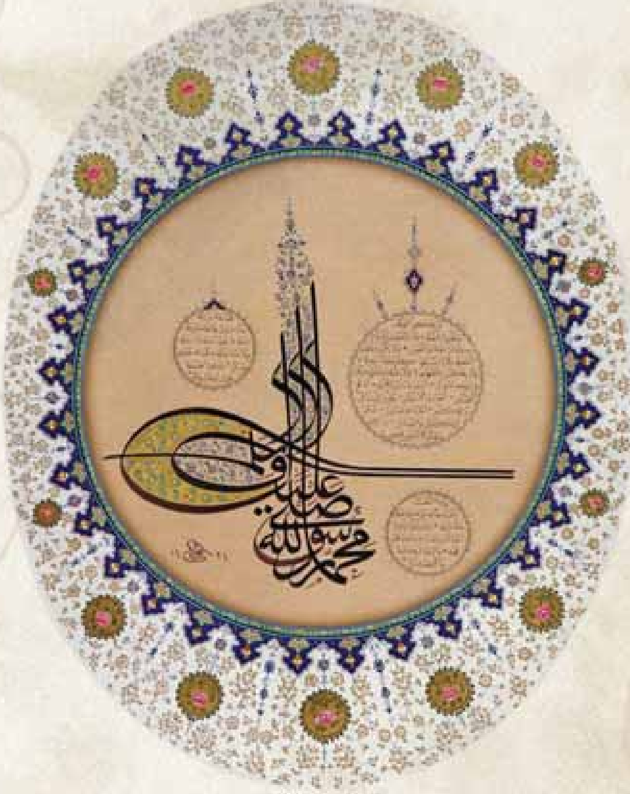
وُلِد إمام أهل البيت في جوف الكعبة، واستُشهِد في مسجد الكوفة وهو يؤمُّ الناس في صلاة الفجر، لقد كان سيدنا علي رضي الله عنه رمزًا للحكمة والفضيلة، ومن نصائحه الكثيرة القيِّمة:

«قوام الدين والدنيا أربعة رجال: عالِمٌ مستعملٌ علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، وغني لا يبخل بماله، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه».



الحرص على زيارة النبي ﷺ

لم يكن أحدٌ من الصحابة الكرام يصبر على البعد عن رسول الله ﷺ كي لا يحرم من نظراته المباركة وإرشاداته الحكيمة، وكان الصحابة كثيرًا ما ينبِّهون أولادهم في هذا الشأن، فهل لدينا ولأولادنا يا تُرى مثل ذلك الحرص على رؤية رسول الله ﷺ؟ وهل نسعى للاستفادة من صحبة ورثته من العلماء والعارفين؟



نبي العفو

لقد كان نبينا محمد ﷺ نبيًّا كريمًا عفوًّا، فلقد عفا حتى عن هند بنت عتبة، التي أمرت بقتل عمه الحبيب حمزة، ولاكَتْ كبده، وعفا أيضًا عن المرأة التي دسَّت في طعامه السم، وعن الذين حاولوا أن يسحروه، وعفا يوم فتح مكة عن أهلها الذين ظلموا المسلمين وجارُوا عليهم لسنوات طويلة مع أنه كان قادرًا على الثأر منهم، غير أنه بعفوه عنهم أحيا كثيرًا من القلوب الميتة.



عظم شأن النبي ﷺ

إن الإنسان إذا سلَّم على أحد أثناء صلاته فسدت، لكن السلام على النبي ﷺ في الصلاة بقولك: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته»، يكمِّل الصلاة.

اللهمَّ صلِّ على سيدنا محمد طبِّ القلوب ودوائها وعافية الأبدان وشفائها ونور الأبصار وضيائها وعلى آله وصحبه وسلِّم مع المؤمنين آمين

ألم الفراق

كان النبي عليه الصلاة والسلام ﷺ يستند إلى جذع نخلة في خُطَبِه، فلمَّا بنى الصحابة منبرًا له، سمع الصحابةُ الكرام أنينَ الجذع لفراقه نبي الله عليه الصلاة والسلام، فوضعَ النبي ﷺ يده الرحيمة عليه، فسَكَن... لقد كان هذا حالَ جذع نخلة، فما حالنا نحن البشر!..



كلُّ مخلوق متيَّمٌ بحبه

يقول رسول الله ﷺ:

«إنه ليس شيء بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله، إلا عاصي الجن والأنس». [أحمد، جـ٣، ص٣١٠]

فلقد عرفه جبلُ أحد، وبكى لفراقه جذع النخلة، وإليه لجأت الحيواناتُ، وشَكَتْ له همَّها... لكن أبا جهل وأمثاله في الماضي والحاضر لم يستطيعوا معرفة قدْرِه وعِظَمَ شأنه...



مسؤوليتنا في الصراع بين الحق والباطل

ليس غريبًا أن نرى أمثال أبي جهل وأبي لهب في زماننا هذا يُسيئون إلى النبي ﷺ، فالسارق إنمايحرص دائمًا على سرقة دكان الذهب، والشجرة المثمرة هي ما تُرمَى بالحجارة.

لقد بحثَ أرباب الجهل في الماضي والحاضر في حياة رسول الله وشخصيته ونقَّبوا في أدنى تفاصيلها، لكنهم لم يجدوا فيها شيئا ينتقدونه أو يطعنون فيه، فلم يبقَ لهم سبيلٌ

إلا الكذب والافتراء. وسيستمر الصراع بين الحق والباطل على هذه الصورة إلى قيام الساعة.

والتاريخ مسرح للمشاهد ذاتها، حتى لو تغيرت الأدوار، فعاقبة أتباع أبي جهل وأبي لهب الذين آذوا رسول الله عليه الصلاة والسلام وأساؤوا إليه لا تختلف عن عاقبة أتباع الظالم نمرود وفرعون الذين كذَّبوا سيدنا إبراهيم وموسى عليهما السلام قبل آلاف السنين؛ وكذلك ستكون عاقبة أعداء الله في المستقبل.

لكن السؤال الذي ينبغي أن نسأله هنا:

ما الذي يقع على عاتقنا نحن- الأمة المحمدية- أمام هذه الافتراءات؟ إن هؤلاء المسيئين يريدون بإساءاتهم حجب حقيقة رسول الله ﷺ، ويريدون بكل هذه الفوضى أن يُصِمُّوا الناس عن سماع حقائق القرآن، ويريدون بخبث ما يرسمونه أن يحجبوا العيون عن نور ذلك السراج المبين.

فالواجب علينا أن نعرض للناس شخصية رسول الله عليه الصلاة والسلام، وأخلاقه الفريدة بأحوالنا وأقوالنا وحياتنا على أفضل صورة.



فتنة رُهَاب الإسلام (إسلاموفوبيا)

لقد استطاع أولئك الذين يحرصون على منع الناس حول العالَم من دخول الإسلام أن يزرعوا بذور الكراهية والعداوة المقيتة للإسلام والمسلمين تحت اسم «رُهاب الإسلام»، وصارت جماعات من الناس تربط- سواء عمدًا أو بغير عمد- بين كلمتَي «الإسلام» و«الإرهاب» الذي يعد اليوم كارثة مفجعة.

مع أن من شرع بالإرهاب هم أولئك الذين لا قلوب لهم، ممن لا تجد في مصطلحاتهم كلمة الأدب أو الأخلاق أو حب الله أو الخشية منه، ففي الإرهاب لا رحمة ولا وجدان ولا دموع تُذرَف على الأطفال والشيوخ والثكالى.

أما الإسلام فقد بُنِيَ على ما هو نقيض ذلك بالتمام؛ بُنيَ على الرأفة والرحمة، وأكثر ما يذكر الله تعالى في القرآن الكريم من أسمائه اسمَيه «الرحمن» و«الرحيم» كي نتعلَّم الرحمة، والنبي ﷺ لم يُرسَل إلا «رحمةً للعالمين».

وإذا قلَّبنا صفحات التاريخ، نجد أن رسول الله ﷺ هو أكثر من واجَه الإرهاب وقاومه طوال مدة نبوَّته التي اسمترت ٢٣ سنة؛ إرهاب الإنسان والحيوان والنبات...

لقد كان نبينا يواجه هذا دائمًا، وكان الأساس عنده مراعاة حق الإنسان سواء كان كافرًا أم مؤمنًا، وكانت النتيجة أن جعل تلك الصحاري الموحشة- التي عمتها الحروب حتى تحولت إلى ما يشبه بِركة من الدماء- تنعم بالطمأنينة، وأسَّس حضارة من الفضائل لا مثيل لها في تاريخ البشر.

وواجبنا نحن- الأمة المحمدية- اليوم أن نتمثَّل أخلاق نبي الرحمة خير تمثل بحياتنا، ونبلِّغها للناس كافة على قدر استطاعتنا، فإن استطعنا أن نؤدي ذلك كما ينبغي، ما وجدَ المفترون للإساءة إلى النبي ﷺ سبيلًا.



إثبات المحبة

إن المسألة لا تنتهي بقولنا: «أحبُّ الله ورسوله»، ذلك أنه لا بد أن تسري صفات المحبوب في المُحِب الحقيقي، وإن كنَّا نحب حقا، فأين رحمتنا ورأفتنا؟ و إلى أي درجة ارتقت أخلاقنا؟

ولا يكفي أن يقول أحدنا: «إني أحب القرآن»؛ بل لا بد أن نتساءل: هل تسري أخلاق القرآن فينا؟ وهل نعمل بأحكام القرآن وآدابه؟..



مَثَلُ النحلة

يقول رسول الله ﷺ:

«إن مَثل المؤمن لكمَثل النحلة، أكلت طيبًا، ووضعت طيبًا، ووقعت فلم تَكْسِر ولم تُفْسِد». [أحمد، جـ٢، ١٩٩]

فعلينا أن نكون مثل النحلة، التي تعمل لملءِ خليتها بالعسل حتى ولو حطَّت على ألف زهرة، فنسعى لنقتدي بحياة رسول الله والأولياء الصالحين، ونعكس تلك المحاسن على حياتنا، فنعكس بذلك جمالَ وجه الإسلام للناس جميعًا.



كتاب الهداية من الحق تعالى

إن القرآن الكريم كتاب هداية أنزله الله تعالى على الناس جميعًا، يدعوهم بها إلى جنَّته، فإن أراد المرء إجابة هذه الدعوة، فلا بد من تلاوة القرآن بتدبر، وسبر أغواره، وتطبيق أوامره، والتحلي بالقلب السليم.

والخدمة الأساسية التي تحيي الأمة كلها في هذا الوقت، وتعيدها إلى هويتها الجوهرية، إنما هي الحثُّ على التوجه إلى القرآن الكريم.



توقير القرآن الكريم

إن القرآن الكريم ليس كتابًا كتبه مخلوق فان، إنما دليلُ هدايةٍ منَّ به خالق الكون على عبادَه ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويستنقذهم من تعاسة الدنيا إلى سعادة الدنيا والآخرة، لذلك لا بد للمرء أن يفتح المصحف الشريف باحترام وتعظيم وأدب كي يستفيد مما فيه على الوجه الأمثل، ولا بد أن يتلوه مستشعرا رحمة الله تعالى بعباده يعلِّمهم ويهديهم به، وعليه أن يتدبر آياته بشوق، وكأنه قد أُنزِل حديثًا.



كيف ينبغي أن يُتلَى القرآن؟

إنَّ آياتِ القرآن ملتقى معجزات كثيرة تسلِّط الضوء على أعماق التاريخ، وتحل ألغاز الواقع والمستقبل، وتفتح آفاق الطمأنينة والسعادة في الدنيا والآخرة.

ولا بد أن نتذكر دائمًا أن الاستماع إلى آيات القرآن، وإلقاء نظرة عابرة عليها لا يكفي، بل لا بد من اتباعِ ما فيه من أوامر تُظهِر سبل النجاة في الآخرة، واجتنابَ ما فيه من نواهٍ تهبط بالإنسان في هاوية الجحيم؛ فالمؤمن إنما هو ذلك الإنسان الذي يواجه رغبات النفس بروحانية القرآن الكريم.



اقرأ كي تحيا

يقول الفضيل بن عياض:

«إنما نزل القرآن ليُعمَل به، فاتخذ الناس قراءتَه عملًا».



على قدر إدراك قلبنا

إن حِكَم القرآن وأسراره كالبحر العميق، لكنَّ المرءَ ينتفع منه على قدر إدراك قلبه، فكم سيكون مقدار انتفاع المرء من هذا البحر الزاخر إن كان إدراكه القلبي صغيرًا كسَمِّ الخِياط؟!

ولو جلس جميع المؤمنين عوامهم وخواصهم أمام المصحف نفسه، لاستفاد كلٌّ منهم على قدر إدراك قلبه، فمعاني القرآن تُفتَح أمام ناظري العبد على حسب درجة قربه من ربه سبحانه وتعالى.



لذة ما بعدها لذة

حينما يتوضأ المؤمن يغسل فمه فيتطهر ظاهرًا طهارة تليق بتلاوة القرآن الكريم وذِكر الله تعالى، ولكنه إلى جانب ذلك لا بد أن يتطهر من الأخلاق السيئة كالكذب والغيبة والنميمية والافتراء وغيرها بالتوبة والاستغفار، حتى يكون طاهرًا معنويًّا، فالقرآن الكريم يُتلَى بالقلب أساسًا، ولا يمكن أن ينال الإنسان من فيوضات القرآن الكريم إن لم يكن طاهر القلب. يقول سيدنا عثمان بن عفان ﵁:

«لو طهرت قلوبنا ما شبعت من كلام الله».



مدينة الإنسان

إن القرآن الكريم مدينة الإنسان، والكون مدينة القرآن، أي إن القرآن والكون والإنسان عوالم ثلاثة مرتبطة، يشرح كلٌّ منها الآخرَ بأفضل صورة، ومن يتعمق في آي القرآن يجد نفسه ويرى ألطاف ربه، ويبدأ بتقليب صفحات كتاب الكون، حتى تغدو الحِكَم ظاهرة أمام عينيه، فيُبصر بقلبه ما لا يبصره بنظره.



مفتاح التفكر

إن عظَمة الحقائق، وروعة الإحساس الذي يصل إليه القلب بالقرآن، كتلك العَظمة التي تكون غرسة الدلب الصغيرة حينما تنمو، حتى تصبح شجرة ضخمة إن وُضِعَت في تربة خصبة.

ولولا إرشادات القرآن وفيوضاته التي لا حد لها، لصارت أفكارنا وأحاسيسنا كبذرة جافة محرومة من التربة الخصبة.



الميازيب نوعان

إن «القلب والعقل» اللذين يُعدَّا مركزَي الأفكار والأحاسيس في جسم الإنسان هما كحوض الماء. وفي ذلك يقول الأديب نجيب فاضل قيساكوراك: «إن الميازيب التي تملأ هذا الحوض نوعان، فمن الأول يتدفق النور ومن الآخر الدرن». أي إذا سال من تلك الميازيب غفلة الفسق والفجور والحرام والمكروه، صارت قلوبنا كالمزبلة؛ وإذا صارت الميازيب مجرى للفيوضات والروحانيات النابعة من القرآن والسنة، فإن القلوب تغدو بحرًا من الحكمة...



هويتنا المعنوية

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«أي أخي، إن جسمك كجسم الحيوان، يتكون من لحم وعظم، فأحيِ نفسك بالتفكر، فكما يكون تفكرك تكون حياتك؛ إن شَغلت فكرك بالطاعة فأنت في روضة من رياض الجنة، وإن شغلت فكرك بالمعاصي فأنت في وادٍ من أودية جهنم».

إن تفكُّر الإنسان يحدِّد هويته المعنوية، مثلما تحدِّد بصمة الإصبع هويته الجسمية.



عمَّ نبحث؟

إن ميول الإنسان وتوجهاته مِرآته، والإنسان يتمنى أن ينال ما يبحث عنه، ويبحث عمَّا يتمناه. فلا بد أن نسأل أنفسنا: عمَّ نبحث؟ هل قِبلةُ بحثنا العاجلةأم الآجلة؟ هل آفاق خيالنا النفسانيات أم الروحانيات؟ ولا ننسى أن أشد الحماقة البحثُ عن السعادة في سوق السفلة!

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«لو كان الحمار مشتريًا لاشترى قشر البطيخ».

«قيمة الإنسان من قيمة ما يبحث عنه».



لولا الحكمة

إن أول آية نزلت في القرآن الكريم قولُه سبحانه وتعالى:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]

وكل شيء في الكون من الذرَّات إلى المجرات يُقرَأ بالحكمة، والقارئ إنما هو القلب، ذلك أنه ليس شيء في الكون خُلِقَ عبثًا، والأسرار التي لا تدركها العقول تُكشَف بالحكمة، ولولا الحكمة، لبقيت الأسرار أسرارًا، وضاقت الصدور، وعجزت العقول. ويبيِّن مولانا جلال الدين الرومي منزلة الحكمة، فيقول:

«إن الكلمات والأصوات المباركة التي تفيض من قلوب أهل الله تُحيي الناس كما يُحييهم صور إسرافيل».



من الإبداع إلى المُبدِع ومن الأثَر إلى المؤثِّر

إن تجليات القدرة المبثوثة في أرجاء الكون ديوان إلهي لا صوت لها ولا كلمات، والقدرة على قراءة هذا الديوان مرتبطة بِرقَّة المشاعر في القلوب.

وكل ذرَّة في هذا العالَم تتكلَّم مع الإنسان ذي القلب الحي، وجميع المخلوقات تعبِّر عن نفسها بلسان حالها، وليس ثمة ذرة في الكون إلا وتشير إلى الخالق المعبود، وجميع المخلوقات تحمل أثرًا من آثار قدرة الله تعالى الذي خلقها من عدم، فعلى الإنسان رؤية تلك الآثار بنظر العِبرة، وقراءتها بالتفكر في تجليات عظمة الله وقدرته.



لذة التأمل في الإبداع الإلهي

إن أولياء الله ذوي القلوب الحيَّة الفياضة لا ينظرون إلى روعة الخلق الإلهي في الكون نظرة سطحية، بل يتأملونها تأملات عميقة، ويرتقون في تأملاتهم حتى يرواالبحار المخفيَّة في قطرة الماء، ويشاهدون الشمس المشرقة التي هي من تجليات القدرة الإلهية بِحَيرة ودهشة، ويتأملون في تناسق تلك اللوحة الملونة التي ترسمها إشعاعات الشمس وقت الغروب، ويُعجَبون بالأسرار والحكم الكثيرة بتقليبهم صفحات كتاب الكون. وتعجز الكلمات عن التعبير عن حال القلب السامع البصير، فالذين يشاهدون تجليات قدرة الله وعظمته وإبداعه في هذا الكون بتلك الرِّقَّة القلبية يستشعرون عظمة الله تعالى في كل صفحات الكون التي يعرضها ربنا ﷻ ويرونها خارقة من الخوارق التي يغطيها الإلف عند غيرهم.



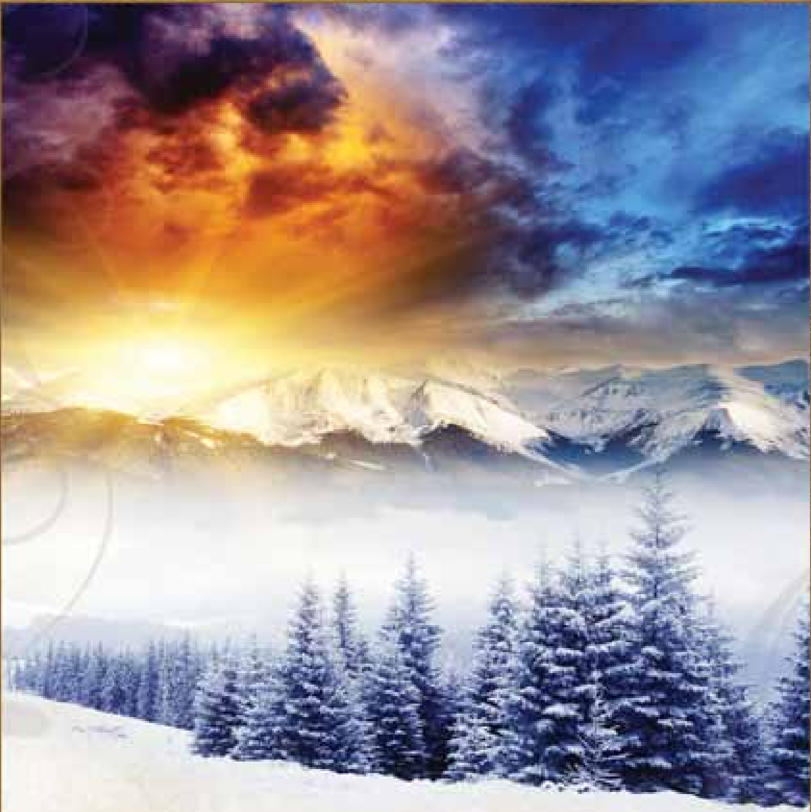
النظر بعرفان إلى كتاب الكون

لا نجد عند أولياء الله تعالى الغفلةَ التي عند الناس في نظرهم إلى عجائب هذا الكون، لأنهم ينظرون إلى المخلوقات بعين الحكمة. ويتجه نظر هؤلاء الأولياء بإعجاب وحيرة إلى أمور كثيرة، منها: أوراق النباتات وأزهارها ذوات الألوان الكثيرة مع أن أصلها كلها تراب واحد، والأشجار ذوات الأفنان والثمار التي تختلف فيما بينها من حيث اللون والرائحة والطعم والشكل، ولا تكاد ترى تشابهًا بينها، وهذي الزخارف العجيبة المنقوشة على أجنحة الفراشات التي ما بلغ عمرها الأسبوع أو الأسبوعين، و تلك البلابل التي تصدح بالنغمات من قلبها الصغير فتأخذ الألباب، والدقائق الموجودة في خلق الإنسان، والعجائب الإلهية التي لا حد لها، مثل رؤية العين وإدراك الدماغ وما تعبِّر عنه هذه العجائب من أسرار بـ« لسان حالها». يتعمق أولياء الله في النظر والتفكر في آثار إبداع الله وكأنهم ينظرون إلى آفاق لا حد لها.



أفضل التسابيح

إن الإنسان الذي يمتلك قلبًا حيًّا يدرك أن العالَم كله من تجليات قدرة الله وعظمته، ويرى في كل شيء آثار إبداعه جلَّ وعلا، وكلُّ ذرة في الكون تمنحه لذة ما بعدها لذة، حتى إن تلك النغمات التي تطلقها الطيور الصغيرة من قلبها الصغير هي من أفضل التسابيح للقلوب التوَّاقة للحق تعالى.



عندما تتعمق في التفكر

يقول بِشر الحافي رحمه الله تعالى:

«لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه». [تفسير ابن كثير، جـ٢، ص١٨٥].

وكان من أقوال أولياء الله:

«إنما احتجب الله تعالى لشدة ظهوره».



اختلاف في النظر

ما أجمل قول أحد العارفين:

«يرى أولو الألباب بعين الحكمة هذا الكون عظمة صنع الله تعالى، أما الحمقى فيرونه شهوةً وطعامًا».

ويقول الشيخ سعدي الشيرازي رحمه الله تعالى:

«إن القلوب العارفة ترى في ورقة الشجرة ديوانًا يصف معرفة الله تعالى، أما القلوب الغافلة فلا تكاد ترى في الأشجار كلها ما يراه العارفون في ورقة واحدة».



لا تكن غافلًا!

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إن أنفاس الأنبياء تؤثِّر حتى في الحجارة، ويخضع لكلماتهم حتى الجبال، لكن لا تصيب الأحمقَ أيُّ لؤلؤة من لآلئ حِكَمهم».

«إن الأحمق يسمع بموت الناس حوله، ولكنه لا يود أن يتذكر موته».

يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]



عمى القلوب

كم من إنسان مبصر يمسي قلبه غليظًا لغفلته، ويعمى عن رؤية الحكم والحقائق لأنه يعيش حياته بجهل وغباء وحماقة، وفي هؤلاء يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]

﴿ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ١٧٩]

﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٥٠]

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٥]



ما أشدَّها من غفلة!

يقول المفسر إسماعيل حقي البورصوي:

«ما أعظم هذا الإله الذي جعل الأذن- وهي قطعة غضروف- تسمع، وجعل اللسان- وهي قطعة لحم- تنطق، وجعل العين ترى، وخلَقَ الثمار بحباتها، والحيوانات بلحومها وشحومها، والأرض بأشجارها وأنهارها، والسماء بأقمارها ونجومها، وجعل الليل سكنًا للناس، وملأ النهار بالنعم التي لا تحصى، ومع أنك لا تعبده حقَّ عبادته، فإنه يطعمك ويسقيك وكأنه لا عبد في الأرض سواك، لكن أفعالك تدل على أنك تلجأ إلى إله غيره».

[انظر: روح البيان، جـ١، ص٩٤-٩٥]



انظرْ إلى الإبداع الحقيقي

ما أعجب الإنسان الذي يحار ويُدهَش حينما يرى قصرًا فاخرًا، وتراه يذكره ويصف جماله طوال حياته، بينما حين يرى هذا الكون العظيم الذي أبدعه الخالق العظيم سبحانه وتعالى، لا يتفكر بدقائقه كما ينبغي، بل يقف عليه وكأنه شيء عادي، فيكون حاله كحال تلك الصخور التي تنزل عليها أمطار الربيع فلا تستفيد منها... مع أن هذا القصر الفاني الذي يُعجَب به ما هو إلا ذرة في هذه الأرض التي تعد من أصغر أجسام هذا الكون العظيم...



ما التصوف؟

التصوف معرفة الله؛ أي: فنُّ إدراك الله سبحانه وتعالى بالقلب.

التصوف منهاج للتطهر؛ فهو سبيل الوصول إلى «التقوى» بالحذر من أي شيء يُبعِد عن الله تعالى، وهو مدرسة للنضج المعنوي يحيا طلابها بلذة روحانية.



الجهاد الأكبر

التصوف معركة مع النفس لا هوادة فيها، فالنفس طاقة مليئة بالأسرار لا تُربَّى إلا بالجهاد الأكبر.

التصوف يبيِّن للإنسان سر الامتحان في الدنيا، ويوضِّح القواعد التي نكون بها عبادًا للحق تعالى، والتصوف تعليم وتربية وتزكية تُوصِل النفس إلى الروحانيات.



المَسِير من الإيمان إلى الإحسان

التصوف شراب من ينابيع التسليم لله تعالى يرتوي به العبد، وهو الذي يوصِل «الإيمان» إلى آفاق سامية مثل «الإحسان».

التصوف فنُّ البقاء حبيبًا لله في كل زمان ومكان، بالرضا عن قضائه سبحانه وتعالى، وهو مهارة الحفاظ على الاعتدال والاتزان أمام تقلبات الحياة ومدها وجزرها، وأن يبقى العبد عبدًا صالحًا دائمًا بنسيان الشكوى والتذمر.



انسجام الروح والجسم

التصوف جوهرُ الدين وباطنه ولبُّه، والدين بلا تصوف مجموعة من القواعد الجافة.

فلا بد من التوازن بين الكلمات ومعانيها، وبين الشكل والروح...

والمهم هنا عدم الاهتمام بأحد الجانبَين وإهمال الآخر، وأداء الأوامر الإلهية بانسجام الروح والجسم.



البُعد القلبي

التصوف فهمُ القرآن والسنة بالقلب، والسعي لمعرفة رسول الله بالمحبة من قريب، والقدرة على عيش الدين كما تقتضي روحانيته، وذلك بالتأسي بشخصية النبي ﷺ.



صدى قلب
مولانا جلال الدين الرومي

«إنني ما دامَت الروح محبوسة في هذا الجسد عبدٌ لما جاء في القرآن، وسالكٌ درب محمد ﷺ... ومن نقل عني غير هذا فقد آذاني».



ما التقوى؟

التقوى تسليم القلب لله سبحانه وتعالى، وتنظيم الحياة بناءً على أوامره ونواهيه، والالتزام بمنهاج الأخلاق، وذلك بالتطهر من الكفر والشرك والنفاق، والتخلص من سبل السوء والضلال والسعي وراء الشهوات والأهواء.



الحذر من أشواك الذنوب

سأل سيدنا عمرُ بن الخطاب أبيَّ بن كعب ﵄ عن التقوى؟ فقال له: أما سلكت طريقًا ذا شوك؟ قال: بلى. قال: فما عملتَ؟ قال: شمَّرت واجتهدت، قال: فذلك التقوى.



باب الوصال مع الله تعالى: التقوى

التقوى صلة العبد بربه؛ أي تجلِّي الصفات الجمالية مثل الرحمة والرأفة والعفو والحِلم في القلب، وسعي العبد لبلوغ مرضاة الله سبحانه وتعالى في كل حركة وسكنة، بل حتى في كل نَفَس يتنفَّسه.

التقوى أفضل معلم وخير مرشد، فبالتقوى يميِّز العبدُ الباطلَ من الحق، والشرَّ من الخير، فيقترب من رضا الله سبحانه وتعالى؛ وبهذا القرب يكون الله تعالى بصره الذي يبصر به، وسمعه الذي يسمعه به، وقلبه الذي يعقل به.

الدقة في التقوى

قد يجلب العمل الصالح أحيانًا على بساطته رحمةَ الله تعالى فيكون وسيلةً لمكرمات وألطاف عظيمة، لذلك ينبغي عدم الابتعاد عن الأعمال الخيِّرة الصغيرة التي يظنها العبد غير ذات أهمية.

وفي المقابل قد يكون الذنب الذي يحتقره العبد سببًا لغضب الله تعالى، فيجعل آخرة العبد عذابًا أبديًّا، لذلك حذَّر الإمام الواعظ بلال بن سعد رحمه الله الناس، فقال: «لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى من عصيت».



بمَن نقتدي؟

يقول سيدنا أنس بن مالك ﵁:

«إنكم لتعملون أعمالًا هي أدقُّ في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعدها على عهد النبي ﷺ من الموبقات». [البخاري، الرقاق، ٣٢]

فعلى المؤمن أن يحذر أشد الحذر من الرضا عن نفسه قياسًا على المجتمع من حوله، وعليه أن يجعل من النبي المصطفى ﷺ وصحابته الكرام دائما قدوة له في كل حال.



غذاء الروح

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«قدِّم القليل من الدسم والعسل لجسمك؛ فالإفراط في تسمينه يُوقِعك في الرغبات النفسانية، ويهوي بك إلى الدناءة في نهاية المطاف».

«قدِّم للروح الغذاءَ المعنوي، وقدِّم لها الفكر الناضج، والفهم الدقيق، كي تحتفظ بقوتها أينما حلت».



الصراع الداخلي

يوضِّح مولانا جلال الدين الرومي الصراع الداخلي الذي يعيشه الإنسان بالتشبيه التالي:

«يا سائرًا في طريق الحق، إن كنت تريد أن تعلم الحقيقة، فاعلم أن موسى وفرعون لم يموتا، بل يعيشان في داخلك، ويختبآن في وجودك، ويتصارعان في قلبك».

إن جميع أحوال الإنسان وحركاته مرآةٌ لقلبه، وكما أنك لا تستطيع رسم خط مستقيم بمِسطرة معوجَّة، فإنه من الحماقة أن تتوقع سلوكًا فاضلًا ممَّن ليس عنده قلبٌ طاهر برَّاق.



لزوم تربية النفس

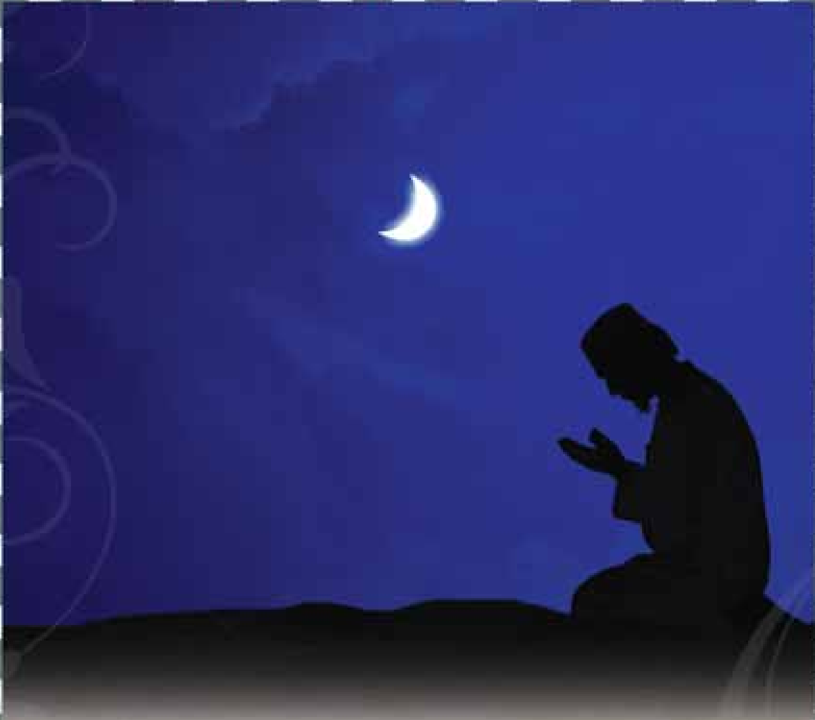
يقول ابن قيم الجوزية في بيان نفس الإنسان:

«سبحان الله، في النفس كِبر إبليس، وحسد قابيل، وعتو عاد، وطغيان ثمود، وجرأة نمرود، واستطالة فرعون، وبغي قارون، وقِحَة هامان، وهوى بلعام، وحيل أصحاب السبت، وتمرد الوليد، وجهل أبي جهل... غير أن الرياضة والمجاهدة تُذْهب ذلك». [الفوائد، بيروت ١٩٧٣، ص٧٤-٧٥]



كفَّتا الميزان

إن الروحانيات والنفسانيات في الإنسان ككفَّتي الميزان، فإن خفَّت إحداهما رجحت الأخرى، ولن تبلغ القلوب اللذات الباقية ما لم تبتعد عن الملذات الفانية، ومثَل ذلك مَثل الرضيع الذي لا يذوق الأطعمة الطيبة ما لم يُفطَم.



العبودية بإحسان

الإحسان شعور المؤمن أن الله سبحانه وتعالى يراه كل حين، فيقيم عباداته ومعاملاته وسلوكه على هذا الأساس، وإن التلذذ بالعبادات وعدم استثقالها لا يكون إلا بشعور الإحسان، فمن خلى فؤاده من شعور الإحسان يتعب إن صلى، ويثقل عليه أمر الزكاة والصدقة والإنفاق وإن كان غنيًّا، لأنه بعيد عن شعور مراقبة الله تعالى، فلا يجد حلاوة الإيمان في قلبه.



النجاة من الغفلة

لا بد أن يذكر العبدُ ربَّه ﷻ دائمًا كي يبقى بعيدًا عن الغفلة، فالذنوب تُقترَف حينما يكون صاحبها غافلًا عن الله سبحانه وتعالى، القائل في كتابه العزيز:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]

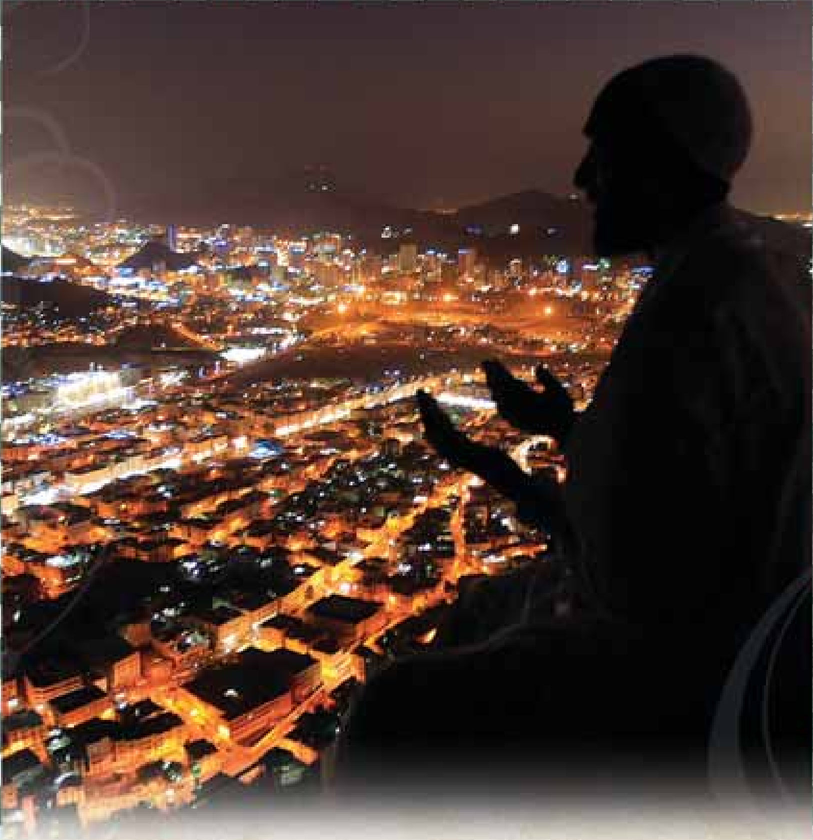
والحق أنك لن ترى أحدًا يُسمِّي بالله ثم يؤذي أخاه، فالذي ينطق قلبه بكلمة «الله» لا يظلم أحدًا، ولا يستطيع أن يؤذي أخاه حتى بشوكة، ويحرص أن لا يقترب من دائرة الحرام.



رجم الشيطان

إن رجم الشيطان ركن واجب من أركان الحج، لكن الله سبحانه وتعالى يأمرنا برجمه في كل صفحة من صفحات حياتنا، وذلك بالاستعاذة به سبحانه من الشيطان الرجيم.

فإن لم نستطع أن نرجم الشيطان بعباداتنا وأخلاقنا وسلوكنا الحسن، فإن الشيطان يبدأ برجمنا بوسوسته وإغوائه.



مَن نصاحب؟

إن الله سبحانه وتعالى معنا أينما كنَّا، لكن السؤال الذي ينبغي أن يكون في أذهاننا: هل نحن معه؟

إن الذين ينسون الله تعالى، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، إنما هم أشد الناس ضلالًا في هذه الحياة.

والذي يكون مع ربه ﷻ حينما يكون في سعادة مادية ومعنوية، يجد الله معه حينما تدهمه المصائب والهموم.

المعية مع الله

إن المؤمن حين يرتبط قلبه بالله سبحانه وتعالى لا يُضيِّع عمرَه بتتبع الأهواء النفسانية، ولا يُفسِد عقله بالسفاهة والرذالة، ولا يسعى وراء مغامرات لا طائل فيها، ولا يغرق في الباطل والغلو، ولا يغتر بمحبة ما لا نفع فيه، ولا يمزِّق تقويم عمره بالغيبة والنميمة، بل يسعى ليكون مُقرَّبًا من ربه ﷻ دائمًا. يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إن كنتَ مع الله، سُرِرتَ بالحياة والموت، وإن لم تكن معه، كان كلُّ ماء- حتى أعذبه- في الكون لك ناراً».

إن الغافلين عن المولى جل جلاله، الساهين في طاحونة الحياة التي تذروها رياح الأجل، لا تبكي عليهم الدنيا التي تركوها وراءهم حين الموت، ولا تضحك لهم الآخرة التي يقبلون عليها...



لذة الذِّكر

لا يجد عبادُ الله الذين يتذوقون لذة محبة الله بإدراكهم حقيقة الذِّكر أيَّ قيمة للذَّات الدنيوية كلها، فها هو إبراهيم بن أدهم الذي تخلَّى عن الدنيا وما فيها، وتحلَّى بمحبة الله سبحانه وتعالى يقول:

«لو علمَ الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من السرور والنعيم، إذًا لجالدونا على ما نحن فيه بأسيافهم أيام الحياة».

إن العُمرَ يضيع إذا كانت الأيام تمضي بلا ذِكرٍ لله سبحانه وتعالى في الحياة الدنيا.

﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [التوبة: ١٢٩]



لا همَّ بوجود الله ﷻ

إن أشدَّ الموتِ وأفجعَه الغفلةُ عن الله تعالى وفقدانُ رضاه.

وما أجمل دعاء ابن عطاء الله السكندري رحمه الله تعالى، إذ قال:

«يا رب، ماذا وجد من فقدك، وماذا فقد من وجدك؟».

ويقول الحسن البصري رحمه الله تعالى:

«مَن تخشى إذا كان الله معك؟ وإذا لم يكن الله معك، فبمَن تأمل؟ وإلى من تلجأ؟».

الطمأنينة

مَثل المؤمن الذي لا يطمئن إلا بذكر الله، مثَل السمكة لا تحيا بلا ماء، إذ يقول المولى جل جلاله:

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]

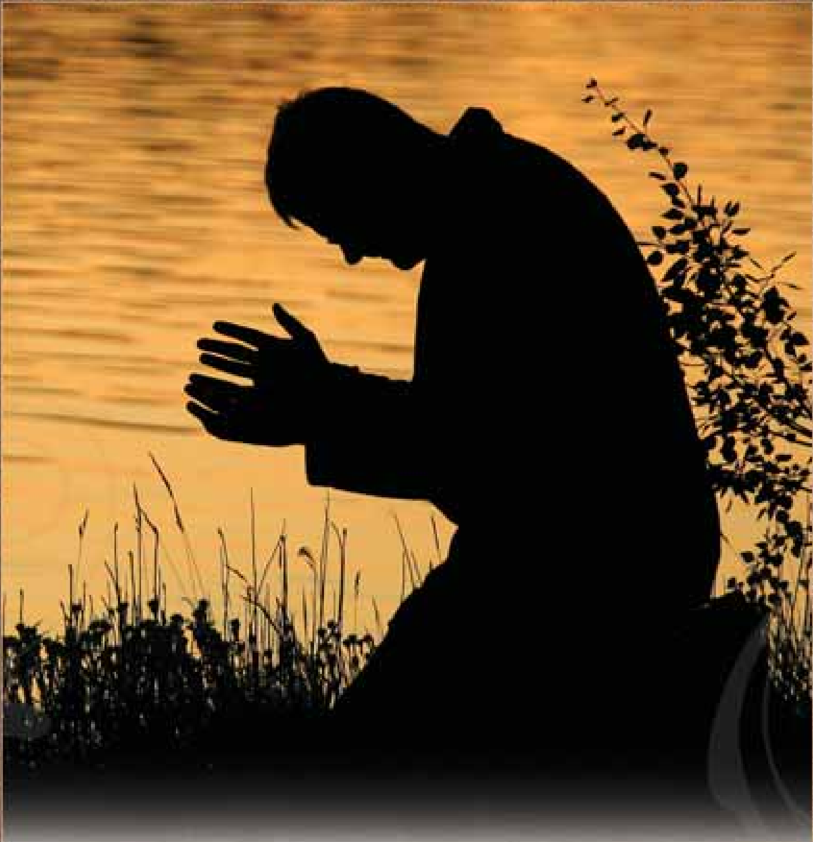
ويقول رسول الله ﷺ:

«مَثَل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت». [البخاري، الدعوات، ٦٦]



نور الذكر

إن نور الذكر على قدْر حال الذاكر؛ فلا بد للذكر المقبول من ترك الحرام والشبهات أولًا، ودفعِ مشاغل الدنيا وشهوات النفس التي تُبعِد عن اللهَ تعالى، وينبغي ألا يقتصر الذكر على اللسان، بل لا بد أن يكون الأساس القلب.

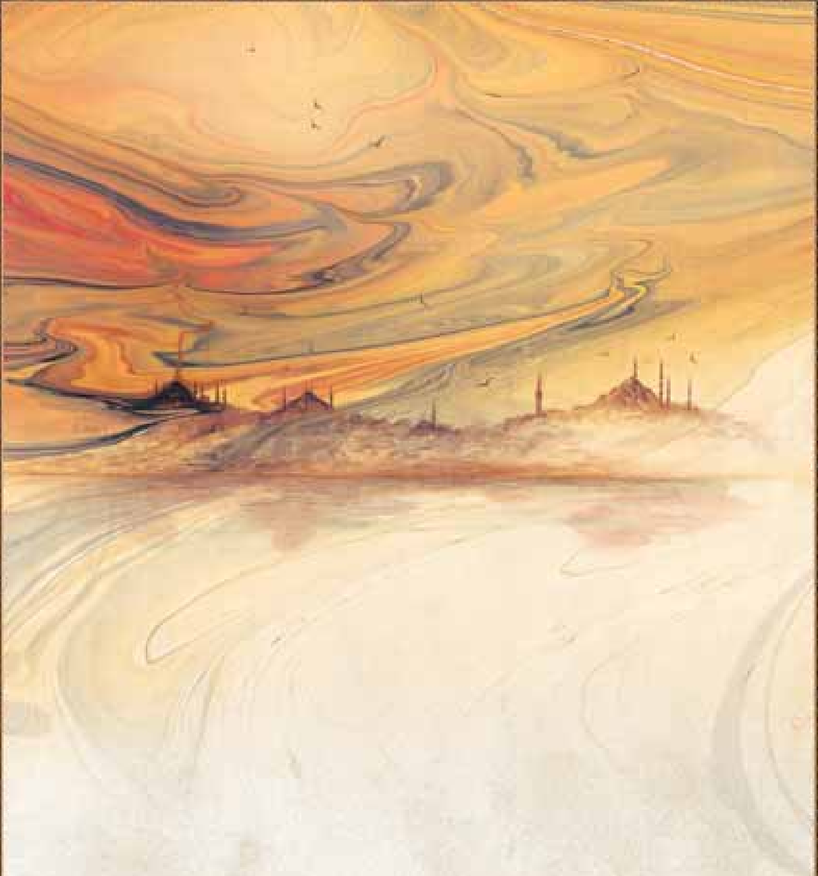


التطهُّر بالدموع

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«ادعُ الله وتُب إليه بفؤاد ملتاع بنار الندامة، وعيون دامعة! فالورود لا تتفتح إلا في الأماكن المشمسة الندية».

«لا يُطهِّر الدرنَ الماءُ، بل الدموع».



الدعاء المقبول

إن بدء الدعاء بالاعتراف بالعجز والتقصير يجلب رحمة الله تعالى، والدعاء المقبول ليس دعاء المتكبرين الذين يحسبون أنهم لا يذنبون، بل دعاء أحباب الله الذين يذرفون الدموع من مآقيهم، فتسيل إلى أعماق قلوبهم رجاء أن يعفو الله عنهم.



بماذا يرتبط قبول الدعاء؟

سألَ قومٌ إبراهيمَ بن أدهم:

«إننا ندعو الله منذ دهر فلا يستجيب لنا!».

فقال:

«عرفتم الله ولم تؤدوا حقه، ادعيتم حب رسول الله ﷺ وتركتم سنته، قرأتم كتاب الله ولم تعملوا به، أكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها، زعمتم محبةالجنة ولم تعملوا لها، زعمتم الخوف من النار ورهنتم أنفسكم بها، علمتم إن الموت حق ولم تستعدوا له، فكيف يُستجَاب دعاؤكم؟».



هل يحبني الله عز وجل؟

علينا أن نحاسب أنفسنا دائمًا، فنسأل:

- مَن الذين يحبهم الله، ومَن الذين لا يحبهم؟ هل أنا ممَّن يحبهم الله عز وجل، أم ممن لا يحبهم- والعياذ بالله-؟

- هل في حياتي ظلم وجور؟ هل كسرتُ قلب أحد بأقوالي أو أفعالي؟

- هل في عباداتي خشوع وطمأنينة؟

- هل ينطق لساني بكذب أو غيبة أو نميمة؟ هل يخرج من فمي كلام سيء؟



إخلاص النية

يقول رسول الله ﷺ:

«مَن سمَّعَ سمَّع الله به، ومن راءى راءى الله به».

[البخاري، الرقاق ٣٦؛ مسلم، الزهد، ٤٧-٤٨]

التسليم

تكامل الظاهر والباطن

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«لا تضحِّي بالشاة، بل أدرِكْ حقيقة الأضحية، ولا تظن أن العيد عيد اللحم، فالمقصود الأساس من الأضحية العبوديةُ لله تعالى بتسليم وتقوى».



السبيل إلى النار

لا بد أن نتفكر في سوء عاقبة أولئك الذين يتركون الصلاة، وكيف أنذرَ الله أولئك الذين يسهون عن صلاتهم بالويل...

فأهل الجنة سيسألون أهل النار:

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾

فيجيبون:

﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر، ٤٢-٤٣]



قِبلة القلب

لا ضرر للدنيا حين يكون القلب مع الله سبحانه وتعالى، لكن ما أشدَّ ضرر العبادة الصغيرة التي يؤديها العبد بقلب جعلته هموم الدنيا في غفلة، لذلك لا بد أن تكون قِبلة القلب في الصلاة اللهَ تعالى، كما أن قبلةَ الجسم الكعبةُ، والحادثة التالية من حوادث التاريخ المشهورة:

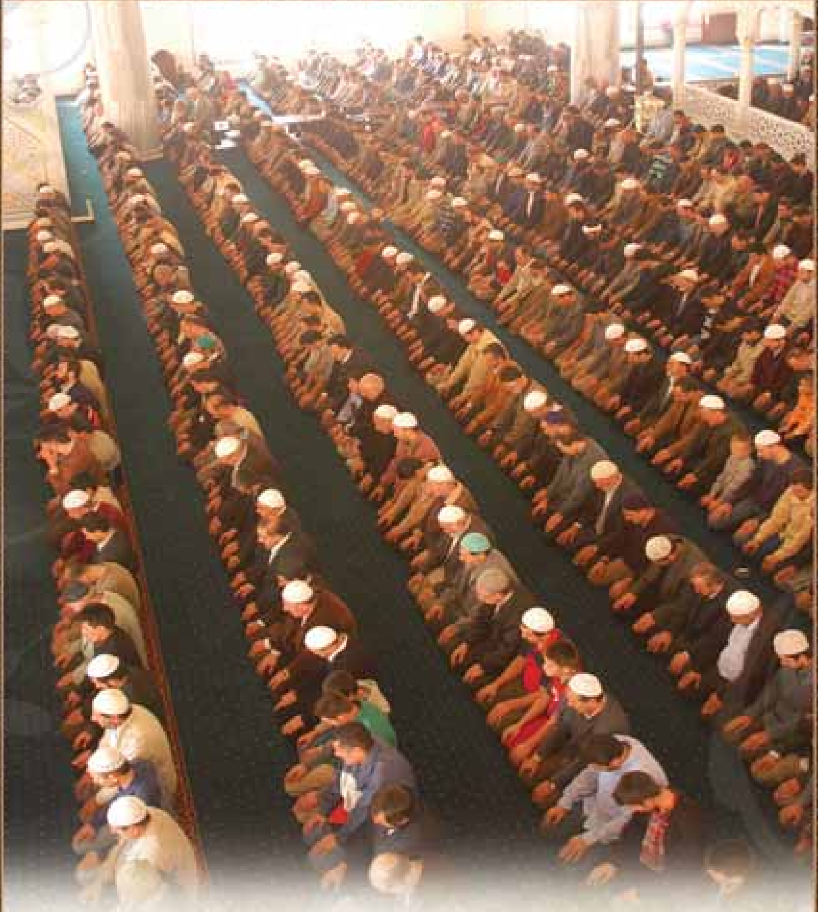
إذ مرَّ مجنون ليلى ذات مرة أمام رجل يصلي، فقطع الرجل صلاته وصاح: «ألا تعرف أنه لا يجوز المرور أمام المصلي؟». فقال مجنون ليلى: «إنني ما رأيتكَ، لحبِّي لليلى، فكيف رأيتني وأنت واقف أمام ربك الذي تحبُّه؟».



الصلاة: مقياس الإنسان

يقول أبو العالية رحمه الله وهو من كبار أئمة التابعين:

«كنا نأتي الرجل لنأخذ عنه، فننظر إذا صلى، فإن أحسنها جلسنا إليه، وقلنا: هو لغيرها أحسن. وإن أساءها قمنا عنه، وقلنا: هو لغيرها أسوأ». [الدرامي، المقدمة، ٣٨/ ٤٣٧]



الصلاة المقبولة

إن الصلاة المقبولة إنما هي الصلاة التي تنهى الإنسان عن الفحشاء كما جاء في الآية الكريمة، فإن أردنا أن نعلم إذا ما كانت صلوات الفروض والسنن التي نصليها مقبولة أم لا، فحسبنا أن ننظر إلى بُعدِنا عن الذنوب والآثام في حياتنا.



لكي لا نخسر أعمالنا

يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

«إن الله تعالى لا يقبل عباداتكم ما لم تجتنبوا الحرام والشبهات، حتى لو انحنت ظهوركم من كثرة الصلاة، ونحلت أجسامكم من كثرة الصيام».

ويقول سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

«اهتموا لقبول أعمالكم الصالحة أكثر مما تهتمون لأدائها».



قيمة العبادة

إن جاءنا أحدٌ بهدايا قيِّمة، فأعطانا إياها بوجه عبوس ويد باردة، ما قبلناها. وأما إن قدَّم لنا أحدٌ هدية بسيطة بودٍّ وأدب ولباقة، قبلناها بسرور وأحببناه وجزيناه عليها.

وكذلك حال العبادات والأدعية التي يتقدم بها العبد لربه، فكلما زادت المحبة في أداء الأعمال لوجه الله تعالى، زادت قيمتها عند الله تعالى، ذلك أن الله لا يحتاج لعباداتنا، بل نحن من نحتاج إليه.



الأدب في العمل

من أقوال العارفين بالله تعالى:

«العبادة تحمل الإنسان إلى الجنة؛ أما تعظيم العبادة والأدب فيها فترتقي به إلى مقام المحبة لله تعالى».

ويقول أنس بن مالك رضي الله عنه:

«الأدب في العمل علامة قبول العمل».



العيش بروح العبادة

يقول بشر الحافي رحمه الله محاسبًا نفسه:

«كيف لي أن أنام ورسول الله ﷺ الذي غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر كان يصلي حتى تنتفخ قدماه؟ كيف لي أن أنام وأنا لا أعلم أغفرت ذنوبي أم لا».



حال المؤمن

لا يمكن أن يتعرض المؤمن الصادق الذي يسير في سبيل الله تعالى للضرر بأي شكل كان، فمن كانت غايته مرضاة الله سبحانه وتعالى يكون ربحه ربحًا عظيمًا، وحتى الضرر في الدنيا يراه ربحًا له من منظور الآخرة، يقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف:

«عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شكرَ، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبرَ، فكان خيرًا له». [مسلم، الزهد، ٦٤]



المحن تُنضج العبد

إن الابتلاءات والمصائب والهموم تُرجِع العبد إلى ربه، وتجعله في التجاء دائم إليه، وتزداد قوة الروح بمقدار العوائق التي تقطعها، لذلك امتحن الله سبحانه وتعالى الأنبياءَ بابتلاءات كثيرة، فالقلب في هذه الأحوال يكون أقرب إلى الله تعالى، وأبعد عن وساوس الشياطين وإغواءتها، فلا يتأثر بها.

مَن منَّا كان سيعظِّم شأن النحل لو أنها لم تكن تصنع العسل؟ فعلى الإنسان أن يجتاز الامتحانات في طريق العبودية بنجاح، ويعبد الله حق العبادة كي يكون له شأن.



الحكمة من المحن

إن الذي لا تصيبه المحن والهموم يتبع هواه، ويطلق العنان لنفسه حتى تصبح كفرس هائج، وأوضح مثال لذلك فرعون ونمرود.

لذلك كان أهل الله يرون في المحن التي تصيبهم نعمًا ترتقي بمشاعر العبودية والعجز لديهم، وتكفل لهم قُربَ قلوبهم من الله تعالى.

فالصخور في ساحل البحر تتخلص من نتوءاتها بالأمواج التي تضربها على مدى سنين طويلة، حتى تغدو ملساء ناعمة.



مَن أحب الوردة لم يعبأ بأشواكها

يقول الشيخ أسعد أربيلي رحمه الله تعالى:

«لا يخشى الإنسان من الأشواك التي تصادفه في الطريق إلى رياض العشق! فإني أجمع مئات البراعم من فوق كل شوكة!».

«إني أتلذذ بالاضطراب في بستان الدروشة، فإن صنعتُ وسادتي من الأشواك رأيت الورد في منامي».

«إن القلوب لا ترتقي معنويًا إلا حينما تنضج بالصبر على المحن والمشقات».

الألطاف المخفية في القهر

قد تدهم المصيبةُ الإنسانَ وهو لا يستحقها، فالمؤمن أحيانًا يتعرض لمصيبة كي يُتوَّج بتاج المَظلمة، ويرتقي بالصبر درجةً، ويُكافَأ على ذلك، ولو أن المصائب لا تأتي إلا لمن يستحقها، لما أصابت الأنبياءَ المعصومين عن الذنب أيُّ مصيبة، وإن نظرنا في تاريخ البشر وجدنا أن أعظم المصائب نزلت على الأنبياء ثم الأولياء ثم الصالحين، فنالوا بذلك الأجر العظيم لصبرهم واحتسابهم.



في كل عمل خير

علينا أن نتذكر دائمًا أن الحرمان- مثل النعمة- امتحان وابتلاء، فإن لم يقدِّر لنا الله ﷻ شيئًا، فعلينا أن نرى حكمة ذلك بعيون قلوبنا، ونعلم أن في ذلك خيراً فنشكره سبحانه عليه، فعلَّام الغيوب إنما هو الله ﷻ القائل في كتابه العزيز:

﴿**وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢١٦]

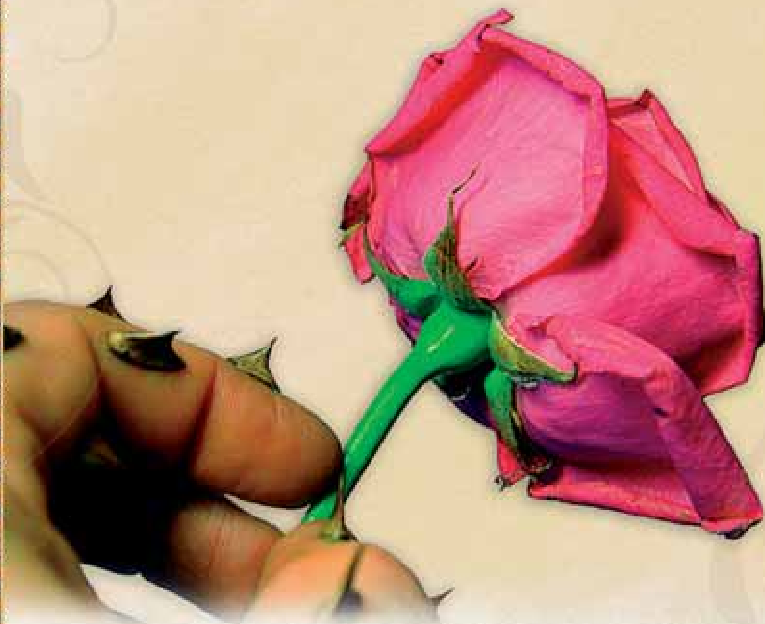


الغنى امتحان والفقر امتحان

يقول المولى جلَّ جلاله:

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: ١٥-١٦]

إن الإنسان لن يعلم موضع الخير، أَهوَ في كثرة الألطاف الإلهية له أم في قلَّتها، إلا عندما يقيس ذلك بميزان الآخرة؛ فقلَّة النعم تعني قلَّة الدَّين، وكثرتُها تعني كثرة الدَّين، فلا سبيل أفضل للإنسان الذي يعجز عن إدراك حِكم القدر وأسراره كما ينبغي إلا التسليم والرضا.



كن بلسمًا

يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله:

«تحمُّلُ الوردة الأشواكَ جعلها ذات رائحة عطرة».

«كن بلسمًا، لا شوكة أذى! وإن أردت أن لا يؤذيك أحد، فلا تكن سيء الكلام، تُعلِّم الأذى وتفكر فيه! واعمل صالحًا على كل حال».



وهذا يمضي أيضًا يا هذا!

يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله:

«إن قلبك دار ضيافة تأتيه المسرَّات والأكدار ثم تمضي، فلا تغتر بالمسرَّات ولا تعبأ بالأكدار، ولا تحزن إن حجبت الهمومُ سرورك! لأن الهموم- إن صبرتَ- مفتاح السرور والسعادة».



وصايا للطمأنينة

قدَّم رسول الله ﷺ لأمته إرشادات قيِّمة كي تطمئن قلوبهم، إذ قال:

«انظروا إلى مَن هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى مَن هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم».

[مسلم، الزهد، ٩]

«من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به، ونظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضله به عليه، كتبه الله شاكرًا وصابرًا». [الترمذي، القيامة، ٥٨/ ٢٥١٢]



الإيمان يحتاج إلى دليل

تُحدَّد قيمة الذهب وصفاؤه حينما يُعرَّض لدرجات مختلفة من الحرارة، وكذلك تُعرَف قيمة الإيمان ودرجته باتزان القلب حينما يتحلى بالصبر والتضحية والتوكل والرضا والتلسيم أمام المصائب والابتلاءات المختلفة.

فالمؤمن بين الناس كالذهب بين المعادن، كلما تعرض لامتحانات وابتلاءات قاسية زادت قيمته وعلا مقامه.

الثبات في التقلبات

إن الأثرياء الكرماء من أهل الشكر، والفقراء المتعففين من أهل الصبر، سواءٌ في شرف الإنسانية ونيل رضا الله ﷻ.

لا بد أن تكون حال الحمد والشكر والرضا والتسليم صفةَ المؤمن الثابتة ولو تغيَّرت ظروف الحياة.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إن تمايلتَ كالأعشاب مع كل ريح تهب عليك، فلن تكون قيمتك حتى كقيمة تلك الأعشاب، ولو كنت كالجبال علوًّا».



الوفاء لله تعالى

أرأيتم كيف يتمسك الولد بأمه وأبيه إذا خاف؟ فكيف هي أحوالنا، لا سيما حال التسليم لقدر الله تعالى؟ إن نجحنا في هذا الأمر، فلن تهزَّنا هموم الدنيا. وإن عصينا القدَر فلن ننال إلا الخسران، وسنضيع في المتاهات.

وحتى الكلاب التي توضَع للحراسة، تكون جيدة على قدر وفائها؛ أي إن المراد هنا أصالة الحيوان، وما أجمل قول مولانا جلال الدين الرومي في هذا الموضوع:

«إن الوفاء قيمة حتى للكلاب، فإن كان عدم الوفاء عيبًا في الكلاب، فكيف لا تكون وفيًّا وقد خلقك الله إنسانًا».



لِمَ كل هذا الحرص؟

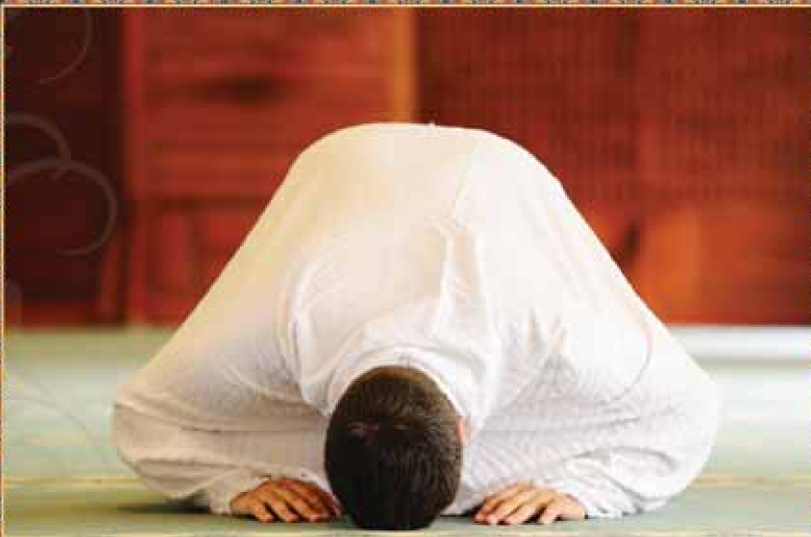
لم يسعَ أيٌّ طائر إلى يومنا هذا لولادة صغار أكثر من جاره، ولم يحزن أي ثعلب لأن لديه حفرة واحدة فقط يختبأ فيها، ولم يمت أي سنجاب خشية من الجوع لأنه لم يخبِّئ مقدارًا كافيًا من الجوز يكفيه لشتاءَين، ولم يمضِ أي كلب لياليه مستيقظًا لأنه لم يكن لديه عظام تكفيه لسنوات شيخوخته؛ فإن كانت هذه المخلوقات في مثل هذه الحال من التوكل والاستغناء، فلِمَ كل هذا الحرص لديك أيها الإنسان؟!

لئن شكرتم لأزيدنكم

الشكر

إن كل عاقل منصف يجد نفسه مَدينًا بالشكر حتى لمَن قدَّم له كأسًا من الماء، وعندما يجد الفرصة يُحسِن لذلك الشخص كما أحسنَ إليه، فبقاء الإنسان جاهلًا مكتوف اليدين أمام ربه الذي أنعمَ عليه بجميع النِّعَم، ما هو إلا ضرب من الجنون.

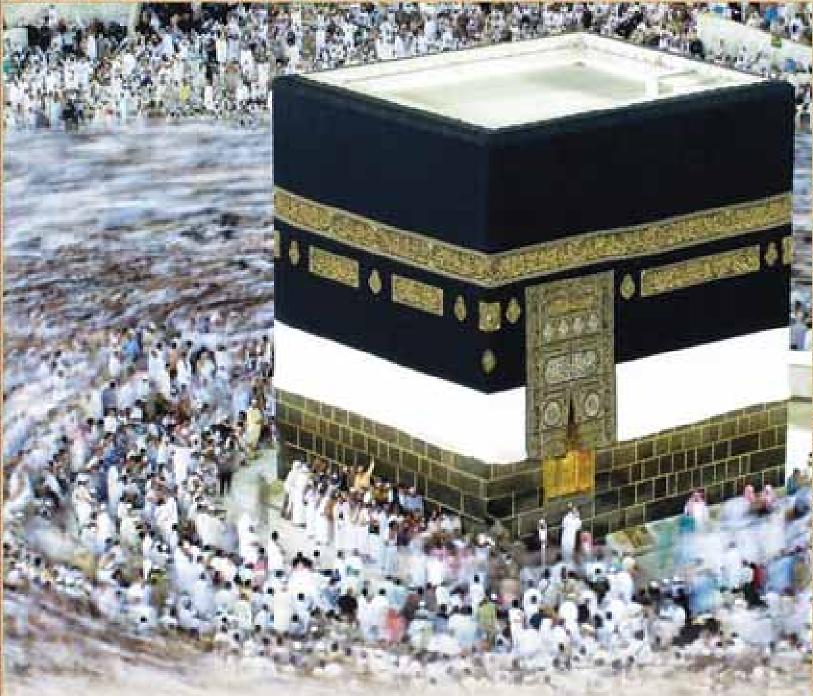
ولنتذكر دائمًا أننا جميعًا نملأ سجل حياتنا الذي سيُعرَض يوم الحشر، وأننا سنُدفَن مع أعمالنا بعد الموت، وأن أعيننا وآذاننا وجلودنا وكلَّ أعضائنا ستنطق يوم الحساب، وتَعرِض الأعمال التي أقدمنا عليها في الدنيا.



قليل مهما شكرنا

أعظم مهمات الإنسان أن يسعى لأداء دَين الشكر لربه ﷻ، فحتى خلقُنا من عدم نعمةٌ نعجز عن شكر ربنا عليها... وما أعظمها من نعمة أن نكون من الإنس بين المخلوقات، ونكون من أهل الإيمان بين الناس، ونكون من أمة محمد ﷺ بين ما يزيد على ١٢٤ ألف نبي.

فلو سجدنا لله تعالى سجدة شكر- على هذه النعم- طوال عمرنا، فسيبقى ذلك قليلاً...



الاهتمام بالرزق ونسيان الرزَّاق

إن كان من الخطأ والمعيب أن نكتفي بشكر الإنسان الذي يوصل إلينا هدية قيِّمة وننسى صاحب الخير الذي أرسلها، فإنه من الجحود الشديد أن نرتبط بالأسباب التي توصِل النعم إلينا وننسى المُسبِّب الحقيقي، وأن نرتبط بالرزق وننسى الرزَّاق. ولا يمكن تصوُّر جحودٍ أشد من نسيان الله تعالى صاحب النعم الحقيقي.



أشدُّ الغدر

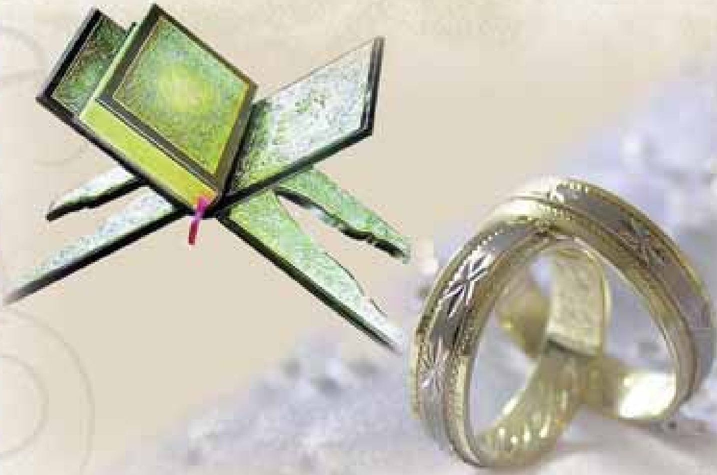
يقول الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو رحمه الله تعالى:

«يقولون عن الولد العاصي لأبيه الرؤوف أنه مجنون، إذًا فمهما قيل عمَّن يخالف أمر ربه الذي هو أرحم الراحمين، يظل قليلًا».



الزواج في الإسلام

الزواج أمر الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وربيع الأجيال، وشرف الرجل والمرأة وأدبهما، وقلعة الشرف والعفة، وميزة يمتاز بها الإنسان عن غيره من المخلوقات.



اختيار شريك الحياة

نرى في أيامنا هذه- مع الأسف- المبالغة في الشروط الدنيوية التي تُطلَب من شريك الحياة، مع أن نبينا ﷺ قد حذَّرنا في هذا الشأن، إذ قال:

«إذا أتاكم من ترضون دينه وخُلقه فزوِّجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير» وكرَّرها ثلاثًا.[٢]

٢ الشيخ منصور علي ناصف، التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول، مصر، ١٩٦١، النكاح والطلاق والعدة، جـ٢، ص٢٨٤.



الأسرة السعيدة

إنَّ أسرةَ رسول الله ﷺ- الذي جعله ربنا ﷻ قدوة لنا- خيرُ أسرة يقتدي بها البشر جميعًا.

ولا يمكن لأي امرأة أن تحب زوجها كما أحبت أمهاتُ المؤمنين النبي ﷺ، ولا يمكن لأي رجل أن يحب زوجه كما أحب رسولُ الله ﷺ أزواجَه، ولا يمكن لولد أو بنت أن يحب أباه كما أحبت فاطمة رضي الله عنها أباها، ولا يمكن لأب أن يحب أولاده كما أحب رسولُ الله ﷺ ابنتَه فاطمة رضي الله عنها.

فعلى مَن يبحث عن السعادة والطمأنينة في أسرته أن يسعى ليقتدي بروحانية تلك الأسرة المباركة.



خير متاع الدنيا:
المرأة الصالحة

إن فضيلة المرأة وعفتها تحوِّلان المجتمع إلى جنة وارفة الظلال، وتغدو الأجيال التي تتربى في تلك الجنة مصدرًا للطمأنينة والسكينة، فالمرأة الصالحة كالنجمة المتلألئة في سماء الأسرة والمجتمع.

يقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف:

«الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة».

[مسلم، الرضاع، ٦٤؛ النسائي، النكاح، ١٥]



زينة نسل الإنسان: الفتاة الصالحة

إنما تسعد المرأة حينما تحيا سيدةً صالحةً، فإن مالت عن مهمتها الأساسية، حطَّمتْ دعائم الأسرة، وقوضت أركانها، ومشاركة المرأة خارج بيتها لا تكون إلا لأسباب ضرورية ولأمور تناسب طبيعتها، ولا بد أن تُحدَّد هذه الأسباب الضرورية بناءً على حاجات المجتمع، ولا تتجاوز الحدود المقبولة المشروعة.

والمرأة بطبيعتها لا تكون كالوردة ولا كالشوكة، ذلك أنها إن تربَّت تربية معنوية صارت وردة، وإن تُرِكَت فريسةً لغيرها صارت شوكة مسمومة.



كنزُ العِفَّة

إن العِفَّة أثمن ما تملكه المرأة، ولا يمكن صون شرف المرأة وكرامتها إلا بالعفة.

ومن أعظم مظاهر مكانة المرأة العالية في الإسلام أنْ أَمَرَها بالتستُّر، ذلك أننا نحفظ كنوزنا القيِّمة بأفضل الوسائل، ولا نعرضها أمام أعين السارقين.



فضيلة الأمومة

إن الأم الصالحة منبع رحمة أكرمَ الله تعالى الإنسانَ بها، وقلب الأم جوهرة تمحو خلافات أفراد الأسرة، لا سيما نزاعات الأولاد المتكررة.

والأم الصالحة المضحِّية تليق بالاحترام والمحبة الكبيرة.

وقد ذكرَ النبي ﷺ أن المرأة الصالحة من الأشياء الثلاثة التي حُبِّبَت إليه من الدنيا.

[انظر: النسائي، عشرة النساء، ١٠؛ أحمد، جـ٣، ص١٢٨، ١٩٩]



واجب احترام الأم

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إياك أن تنسى حقَّ الأم، بل اجعلها على رأسك تاجًا! فلو لم تعانِ الإمهات من آلام الولادة، لما وجد الأولاد سبيلًا للحياة».

ولا يستطيع الإنسان أن يحب مخلوقًا كحبه لأمه التي حملته في بطنها، ثم غذته من لبانها، ثم ربَّته بين ذراعيها، وظلت عاكفة على حبه حتى موتها؛ فلا بد من الدعاء للأم الصالحة وشكرها طوال العمر...

يا رب، حبِّب إليَّ القرآن والصلاة، ولا تجعلني أضل عن صراطك المستقيم.

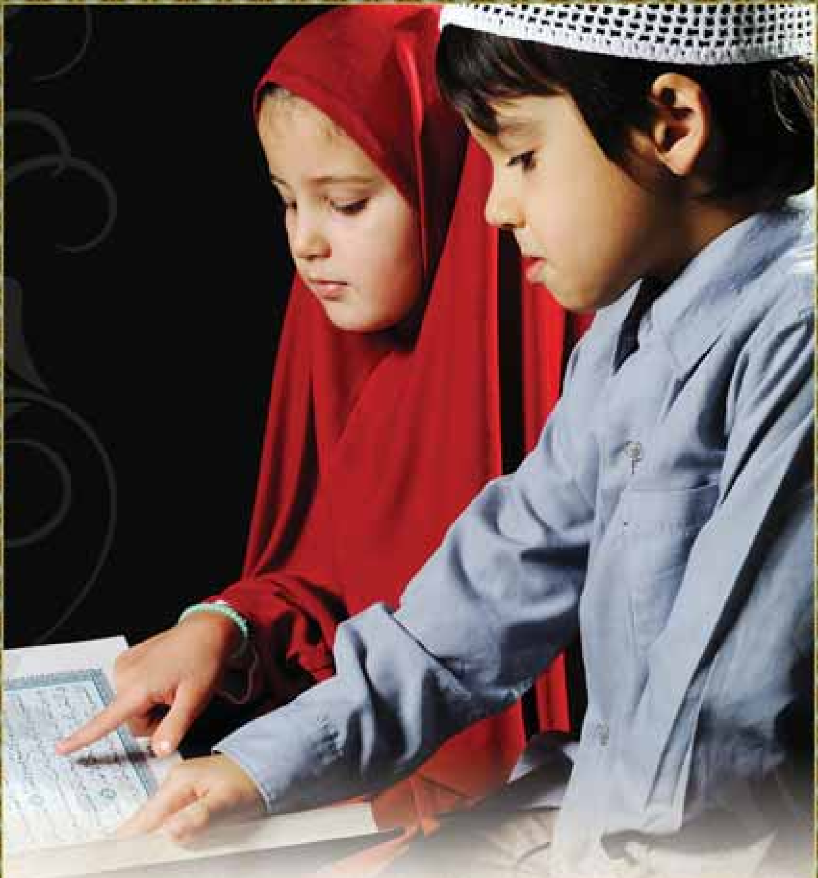


يا رب...
حبِّب إلي القرآن والصلاة!
يا رب...
لا تجعلني أضل عن صراطك المستقيم!

جيل أصيل

إن تربية جيل أصيل واجب عظيم يقع على عاتق الأمة، فعلينا تربية أولادنا تربية إسلامية، ونبذل جهدا مضاعفا في هذا الشأن، لأنه من أجل عباداتنا وطاعاتنا.

وإن أردنا أن يكون أولادنا جيلًا صالحًا، فعلينا أن نسعى لنكون آباء وأمهات صالحين.



طيور الجنة

إن أكثر الآباء والأمهات رحمةً هم أولئك الذين يُعِدُّون أنفسهم وأولادهم لأداء واجب العبودية لله ﷻ على الوجه الأمثل. فالأولاد يُولَدون بصفاء يليق بدخول الجنة، لكن إن أهملَ الآباء والأمهات تربية أولادهم تربية معنوية، فإنهم قد يرسلون طيور الجنة تلك إلى ظلمات الضلال، والعياذ بالله.



أهمية البذور

إن الأولاد أمانة من الله تعالى وضعها في أيدي الآباء والأمهات، وقلوب هؤلاء الأولاد الطاهرة المفطورة على الإسلام كالتربة الخصبة، فإن أُلقيَت فيها بذور صالحة أنبتت ورودًا وثمارًا ناضجة، وإن أُلقيَت فيها بذور فاسدة أنبتت أشواكًا وثمارًا فاسدة.

والمجتمعات القوية أثر من آثار الأُسَر المتماسكة والأمهات الفاضلات، وخير مثال لذلك الصحابيات رضوان الله عليهم. فقد علَّمنَ أولادهن التضحية بأنفسهم وأموالهم، وجعلنَ قلوب صغارهنَّ تفيض بمحبة رسول الله ﷺ.



الراعي الصالح

إن الراعي الجيد لا يسوق قطيعه إلى أراض جرداء، بل إلى أراضٍ نضِرة خضراء، غزيرة المياه، كي ترعى هناك صباح مساء، وهذا يعني أنه من الضروري أن يُربِّي الصالحون من الآباء والأمهات أولادهم بالطعام الحلال، ويأخذوا بأيديهم منذ نعومة أظفارهم إلى رياض الطاعة المباركة كي ينهلوا غذاءهم المعنوي، ويتلقوا أحسن تربية.

وقد كانت الصحابيات يحذِّرن أولادهن إذا أطالوا غيابهم عن مجلس رسول الله ﷺ، وكنَّ يجتهدْنَ أن يقتبس أولادُهن من فيوضات الصالحين.



الميراث الحقيقي

إن أقرب الورثة للمؤمن أولاده، والميراث الحقيقي الذي يتركه لهم إنما هو ثراؤهم في عالم الآخرة؛ فعلينا أن نورِّث أولادنا السعادة الباقية، لا الأموال واللذات الفانية.

وهذه السعادة إنما تتحقق برعاية الأمانتَين اللتَين تركهما رسول الله ﷺ: القرآن الكريم والسنة الشريفة، فالاهتمام بنقل هذا الميراث المقدس لأولادنا صدقة جارية عظيمة لنا، فإن أهملنَا هذا الأمر، صارَ حسرة شديدةً لكل أب وأم في الآخرة.



القلق من المستقبل

إن أعظم الآباء والأمهات رحمةً هم أولئك الذين يُعِدُّون أبناءهم للمستقبل الحقيقي، فيربون أولاهم بالتربية القرآنية استعدادا للآخرة.

ومن الناس من يبذل جهدًا كبيرًا كي يُعلِّم أولاده في جامعة مرموقة ليضمن لهم مستقبلًا جيدًا، فكم يا تُرى يبذل مثل هؤلاء جهدًا من أجل مستقبل أولادهم الأبدي؟ إن تربية الأولاد تربية إسلامية هي مهمتنا الأولى، فإن لم نؤدِّ هذه المهمة، فلنعلم أن فلذات أكبادنا سيُحاجوننا يوم القيامة.



القلق على أولادنا

إن أعظم مسؤولية ملقاة على عاتقنا اليوم مسؤوليتنا عن أولادنا... فقد باتت أجهزة الإعلام المرئي والمسموع، ومواقع الإنترنت المشبوعة، وصفحات الإعلانات الخداعة، بما تنفثه من سموم، وتوقده من نيران الشهوة والأهواء، هي من توجه أفكار أبنائها وتكون شخصيتهم اليوم، حتى بات شعار العصر هو ذلك المبدأ الليبرالي: «دعه يعمل، دعه يمر». فصرنا نجد أولادنا غريبين عن دينهم وثقافتهم وتاريخهم بل حتى عن أُسَرِهم بعد أن فسدت بواطنهم.

فعلينا جميعًا أن نتخذ التدابير الضرورية- قبل فوات الأوان- كي نصون أنفسنا وأولادنا وأُسرَنا وأقاربنا ومجتمعاتنا من هذا المصير السيء الذي قد ننحدر نحوه يوما بعد يوم.



رؤية المستقبل

ليس ثمة حاجة لنكون ممن انكشفت لهم الحجب إن أردنا أن نستكشف مستقبل أمة، فحسبُنا أن ننظر إلى حيث يُفرِّغ شباب تلك الأمة طاقاتهم، فإذا كان شبابها يبذلون جهودهم في سبيل الخير والفضائل، فما أحسن مستقبل تلك الأمة، وإذا كانوا يبذلون جهودهم في سبيل الشر ورغبات النفس وأهوائها، فالخسران عاقبتهم.



الحاجة إلى الإنسان الناضج

يقول أحد المفكرين:

«أكبر فرق بين الشعوب الحاكمة والمحكومة جماعةٌ تلقت تربية صالحة!».



العلم الحقيقي

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]

لا يقتصر العلم على المشاهدة فحسب، فالعلم المقبول إنما هو إدراك سبب مجيء الإنسان إلى الدنيا وخروجه منها.

العلم، بلوغُ الحقيقة بالتخلص من أسْرِ النفس قبل الموت، ومعرفة في مُلكِ من نحيا.

العلم، الدأبُ على إدراك تجليات قدرة الله تعالى وعظمته، وفهم الإشارات الإلهية في كل شيء؛ أي فهم لسان حال المخلوقات، وحلُّ سرِّ الوجود في هذا الكون بمعرفة الحِكَم المبثوثة فيها.



الروح التي تُحيي المجتمعات

إن الروح التي تُلقِّح المجتمعات بالعلم الحقيقي ليست روح العلماء الذين يؤثرون أنفسهم على غيرهم، ويعكفون على كتب الفلسفة الجِسام، بل روح المؤمنين الصالحين من أهل الخدمة الذين يتدبرون في آي القرآن الكريم، ويكونون رحمة وطمأنينة للناس في كل آن.



الحاملون للأسفار

يشبِّه الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أولئك الذين لا يعملون بعلمهم بالحمار يحمل أسفارًا؛ هل يعلم الحمار بما حوته الكتب التي حُمِّل بها من علوم ومعارف؟ فمَثَل أولئك الذين قرؤوا وحشَوا عقولهم بالعلوم، لكن لم تفهمها قلوبهم وما طبقوها في حياتهم، كمثل الحمار يحمل أسفارًا لا يعلم منها شيئًا.



الإساءة العظمى للأولاد

إن ترك غزال بين قطيع من الذئاب والضباع حماقة ما بعدها حماقة، وكذلك ترك الإنسان ولدَه- الذي هو جزء منه- فريسة لمن يعلمه السوء والفحشاء ويفسد روحه المعنوية جهل ما بعده جهل، وليس هذا إلا كوضع السُّمِّ في كأس ابنك ليهلك به.



التربية بجناحين

إن الاقتصار في التربية على الجانب المادي دون الجانب المعنوي نقصان وخلل، فالتوازن بين الحاجات المادية والمعنوية في التربية شرط أساسي من شروط نجاحها، وإلا فإن الإنسان يكون كالطيرِ يسعى للطيران بجناح واحد، فيسقط لقمة سائغة في فم قِطٍّ جائع.

ولا بد من التربية المعنوية، والتركيز على التقوى في بداية تحصيل العلم، فالذي يجعل العبد مقبولًا عند ربه جلَّ وعلا إنما هو التقوى في قلبه، لا الشهادة في يده.



علم لا ينفع

يظل علم الإنسان مهما عَظُم ناقصًا ما لم يهتدِ بنور القرآن والسنة، فالطبيب مثلًا قد يغدو- بدل أن يعالج الناس- جزَّارًا يتاجر بأعضاء الناس من أجل أهوائه ورغبات نفسه، وقد يمسي رجل القانون- بدل أن يحرص على إقامة العدل- زعيمًا لعصابة أو مدافعًا عن الظلم والظالمين، وقد يدعو عالِم الدين إلى دين بعيد عن التقوى، فالنفس التي تكون أسيرة الأهواء تجعل العلوم التي بين يديها آلةً في سبيل منافع دنيئة.

النقص آفة

لا بد أن يكون كل شيء كاملًا في حياتنا لا سيما حياتنا المعنوية، ومن الأقوال المشهورة: «أنصاف الشيوخ يُضيِّعون الدِّين، وأنصاف الأطباء يُضيِّعون الروح»، فكل ناقص يجلب وراءه آفة، وإن كان ثمة نقص في إيماننا وعبادتنا ومعاملاتنا وكافة جوانب حياتنا، فهذا نذير لنا بمصائب مادية ومعنوية.



مهنة الأنبياء

إن الأنبياء أعظم مربِّي البشرية، وتربية الإنسان مهنة مقدسة يؤديها الأنبياء وورثتهم من بعدهم، فلذلك كان لا بد لمن أراد تبوء مقام التربية للخلق أن يتمتع بمشاعر قوية مرهفة.



صفات المعلِّم القدوة

يُعرِّف الشاعر محمد عاكف أرصوي المعلِّم القدوة بقوله:

«على المعلِّم أن يكون ذا إيمان وأدب ولياقة ووجدان».

أي ينبغي أن يتحلى المعلِّم قبل أي شيء بـ«الإيمان» كي تفيض الرحمة من قلبه.

و«الأدب» كي يبني شخصية عظيمة.

و«اللياقة» كي يربِّي نفسه بشعور المسؤولية، ويكون أهلًا لوظيفته.

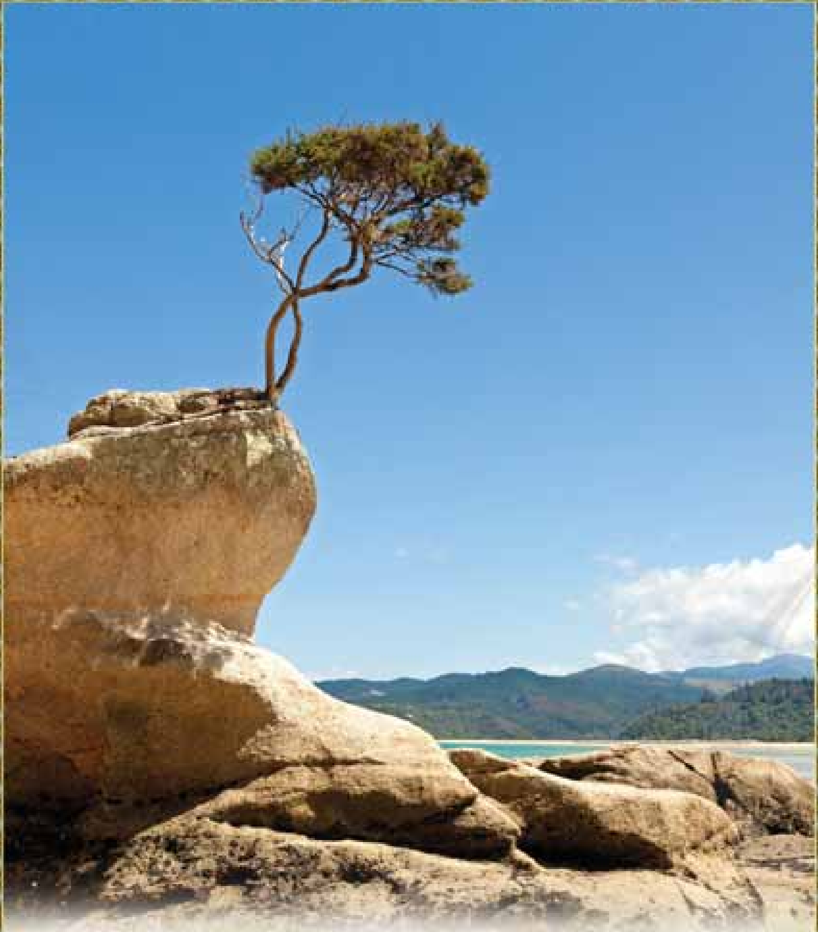
«والوجدان» كي يُظهِر إنسانيته بالفضائل مثل الرحمة والرأفة والتضحية.



شرط الجدارة

إن المياه الضحلة يتعكر صفوها بأصغر قاذورة تُرمَى فيها، أما البحر الزاخر فلا يتعكر صفوه بسهولة، لا، بل يُطهِّر الأشياء القذرة التي تُلقى فيه.

والمذنب كالشيء الملوَّث، فإذا كان ذلك الشيء منديلًا فيكفي كأس من الماء لتنظيفه، لكن إذا كان ثيابَ عامل فيلزمه قِدْرًا من الماء؛ وذلك الماء إنما هو العلم والعرفان والإخلاص والحكمة.



لا عذر

إن المربِّي الذي يجد عذرًا لإهماله وتهاونه، فيبتعد عن السعي والخدمة بحجج وذرائع واهية، كأن يقول: «ماذا أفعل؟ فسد الناس، ولا أحد يأتي إلينا»، يلقِّنه الله تعالى درسًا مليئًا بالحكَم من كتاب الكون، وذلك حينما يجعل الشجرة المثمرة تنبثق من جدار حجري.



الشعار في تبليغ الدين

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]

إن الإنسان مثل البذرة، فإنها إذا أُلقيَت في تربة جافة لا تنبت فورًا، لكنك إذا سقيتَ ذلك التراب- أي إذا ألنتَ قلبَ مُخاطَبك بلسان الرأفة والرحمة- عندها تبدأ تلك البذرة بالنمو، وسرعان ما تُزهِر وتُثمر.



كره الذنب والرحمة بالمذنب

إن مشاعر الرحمة والمحبة تعظم في فؤاد الإنسان كلما ترقى إيمانه في معارج الكمال، وذلك يقتضي إكرام المحرومين والضعفاء والمحتاجين بأسلوب الرأفة الذي يتَّبعه الطبيب الحاذق حينما يعالج مرضاه.

فالطبيب لا يغضب على مريضه حتى لو كان المرض لتقصيرٍ من المريض، ويعلم أنه مكلَّف بتقديم العلاج لمريضه، وأولياء الله- الذين يحيون بهذه الأخلاق- لا ينظرون إلى ذنب المذنب، بل إلى جوهر الإنسانية الذي أودعه الله في ذلك الإنسان، ويرونه كالطير مكسور الجناح، فيسعون إلى علاجه ببلسم الإرشاد والإصلاح.



أسلوب التصوف

دخل سكران ذات يوم مجلس مولانا جلال الدين الرومي، فآذى الطلبة ذلك السكران وأرادوا إخراجه، لكن مولانا جلال الدين كان يرى في ذلك السكران إنسانًا لجأ إلى مجلسه باحثًا عن الحقيقة، فقال لطلابه:

«الرجل شارب للخمر، وأنتم السكارى».

إن أسلوب التصوف يقتضي كره الذنب لا المذنب، والألم لحال المذنب لا الغضب عليه، وهذا الأسلوب يقتضي أولًا استمالة القلوب وتليينها، وذلك بالتقرب إلى المحرومين من نعمة الإيمان، أو أولئك الذين يتبعون أهواء أنفسهم، بالرحمة والقول اللين لا بالقول الغليظ والمُنفِّر.



كروضة من الورود

على المؤمن أن يكون قلبه كروضة من الورود، يجد فيها كل مهموم ومغموم الطمأنينة والسعادة، لذلك لا بد من تطهير القلب والجسم من السلوك والمشاعر والأفكار السيئة، وإعداد الروح للتبليغ عن الله ورسوله.



القول اللين

لمَّا أرسل الله سبحانه وتعالى سيدَنا موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون الذي كان في أشد درجات كفره وظلمه، قال لهما:

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]

فنفهم من هذه الآية الكريمة أنه لا بد أن نخاطب الذي أمامنا- ولو كان مثل فرعون في شدة كفره- بقول لين حكيم يُطمئِن قلبه، لا بالتهديد والوعيد.



التحدث بلطف

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«بعض الكلمات كالسيف القاطع، تقطع الصداقة وتقتلها، وتفتح جراحًا في القلب لا تندمل أبدًا، وبعض الكلمات كموسم الصيف اللاهب، تجفف مروج القلب الخضراء وأزهار المحبة. وبعض الكلمات كالربيع تزيِّن كل ناحية، وتكون وسيلة للسعادة والطمأنينة».



القلوب الرحيمة

إن الذين يداوون القلوب المريضة، ويبعثون السكينة في الصدور الضيقة، ويرشدون العقول الحائرة، ويُسِرُّون الأفئدة المتعبة إنما هم أولياء الله وأحبابه، فهؤلاء الأولياء أمثال بهاء الدين نقشبند، وعبد القادر الجيلاني، ومولانا جلال الدين الرومي، وعزيز محمود هُدائي قد حملوا المحبة لجميع الخلق، وجعلوا قلوبهم كهفًا يلجأ إليه طالبو الرحمة، ويأوي إليه المحتاجون.



الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

كم من غافل تتقاذفه أمواج الحياة في مدها وجزرها إلى نواح مظلمة، تائه في تقلبات الحياة ومتاهاتها، ساع وراء أهواءٍ نفسه ولذاتها، يظن الدناءةَ سعادةً، والتيه راحةً، فترى أمثال هؤلاء لا يشعرون حتى بضرورة بذل الجهد في سبيل إصلاح فسادهم، لأنهم لم يدركوا أنهم فاسدون بعد للأسف.

يقول رسول الله ﷺ:

«كلا، والله لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهَونَّ عن المنكر، ولتأخُذُنَّ على يدي الظالم، ولتأطرُنَّه على الحق أطرًا، ولتقصُرُنَّه على الحق قصرًا». [أبو داود، الملاحم، ١٧/ ٤٣٣٦]



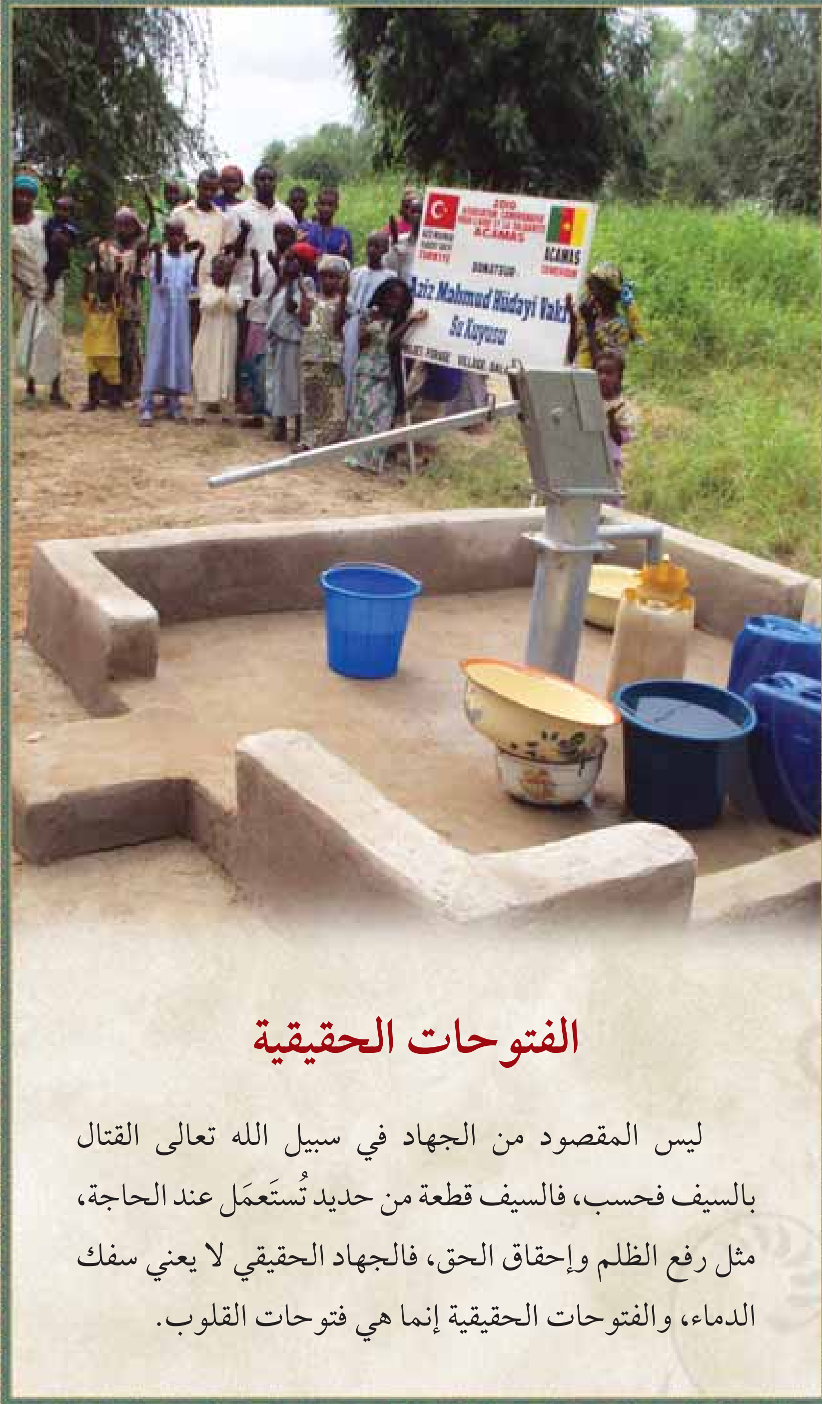
مسؤولية التحذير والإرشاد

عن أبي هريرة ﵁ قال: كنا نسمع أن الرجل يتعلق بالرجل يوم القيامة وهو لا يعرفه، فيقول له: ما لكَ إليَّ وما بيني وبينك معرفة، فيقول: كنت تراني على الخطأ وعلى المنكر ولا تنهاني. [المنذري، الترغيب والترهيب، جـ٣، ١٦٤/ ٣٥٠٦]



مفتاح للخير، مغلاق للشر

شعار المؤمن: «كن مفتاحًا للخير، مغلاقًا للشر»، أي إن من موجبات الإيمان الكفُّ عن الأهواء الشيطانية والنفسية، والنهيُّ عن الشر والباطل، على قدر السعي لإعلاء الحق والخير.



الفتوحات الحقيقية

ليس المقصود من الجهاد في سبيل الله تعالى القتال بالسيف فحسب، فالسيف قطعة من حديد تُستَعمَل عند الحاجة، مثل رفع الظلم وإحقاق الحق، فالجهاد الحقيقي لا يعني سفك الدماء، والفتوحات الحقيقية إنما هي فتوحات القلوب.



لا حُجَّة لنا اليوم

إن نصاب الزكاة معلوم، غير أننا لن نعلم نصاب الشكر على نعم الله ﷻ علينا والسعي في سبيله إلا يوم القيامة؛ لذلك على المؤمن ألا يقنع بتضحياته ومساعيه التي يقدمها مهما عظمت. فكم من الصحابة الكرام ضحُّوا بأموالهم وأنفسهم وكل ما يملكون في سبيل الله، ووصلوا إلى بلاد ما وراء النهر والصين والقسطنطينية في زمان كانت فيه وسائل النقل بسيطة.

أما اليوم فإننا لا نجد أمامنا محيطات يصعب تجاوزها، ولا جبال يعسر السير فيها، ولا أسوار يشقُّ علينا اعتلاؤها، فلا مانع ولا عذر ولا حجة لنا اليوم في عدم مد يد العون لإخواننا في الدين من المظلومين والضعفاء والمساكين، أو التكاسل عن تبليغ الدين لأولئك المحرومين من الهداية.



أفضل الإنفاق

لا ينحصر الإنفاق في الأمور المادية فحسب، بل لا بد من الإنفاق من كل شيء أكرم الله الإنسان به، وأفضل الإنفاق تبليغُ الإسلام عبر تمثله واقعا حيا.

فعلى المؤمن أن يُحيي كل مكان يدخل فيه، وكأنه يزيد من روحانية ذلك المكان.



لا تكسر القلب

يقول مولانا جلال الدين الرومي في كتابه (المثنوي):

«إن كنتَ تعلم مَن في بيت القلب، فعلامَ قلة الأدب أمام صاحب القلب؟»

«إن الحمقى يُظهِرون الاحترام للمساجد وهي من صنع الإنسان، غير أنهم يكسرون القلوب، غافلين عن بانيها وصاحبها.».

القلب محلُّ نظر الله تعالى، وكسر القلب إثم عظيم تقترفه النفس، يقول الشيخ جامي رحمه الله:

«الكعبة بناء بناه إبراهيم بن آزر، لكن القلب محل نظر الله العلي الجبار».



الإساءة تجرح صاحبها

المسلم الواعي لا يكسر قلب أحد، لأنه يتذكر دائمًا أن القلب محل نظر الله تعالى، ويجعل قلبه مكانًا تجد فيه القلوب المهمومة المتعبة السلوى والراحة.



لا إساءة، ولا استياء

إن الكفَّ عن إيذاء الآخرين سهل إلى حدٍّ ما، لكن عدم التأذي من إساءة الآخرين أمر خارج عن الطاقة، فذلك عمل القلب، ولا يكون إلا بتجنب التأثر بالسهام المسمومة التي تضرب القلوب من الخلق، وذلك لا يكون إلا بمقدار كمال تزكية النفس وتطهير القلب.



صفتا القلب السليم

يرى أولياء الله تعالى أن أعظم صفتَين من صفات القلب السليم هما:

١- عدم إيذاء أحد، وعدم الشعور بالأذى أملًا برضا الله تعالى.

٢- ترجيح أعمال الآخرة على أعمال الدنيا.



الإنسان اللطيف

غاية الدين تربية أناس لطفاء طيبين، والمؤمن في حال سلام على المخلوقات كلها بوجهه الطلق، وقلبه المنفتح على الجميع، والمؤمن يتدبر في حكمة الورود المتفتحة والطيور المغردة والأشجار المثمرة، فيكون ذا قلب رقيقٍ كرقَّة الورود، معطاءٍ كعطاء الأشجار المثمرة.



الأدب واللباقة

الأدب من أعظم ما يتزوَّد به السائر في سبيل الله تعالى، ولا يمكن لإنسان أن يطبق الدين وهو فظ غليظ القلب في الوقت نفسه. وعلينا أن نتذكر دائمًا أن الشيطان لم يُطرَد من رحمة الله تعالى لنقصٍ في علمه أو عمله، بل لقلَّة أدبه؛ فالأدب أجمل فضيلة تغيظ الشيطان.

إن غاية التربية المعنوية أن يدرك العبد أنه تحت نظر الحق سبحانه وتعالى، فيجعل الصفات السامية- مثل الأدب واللباقة والحياء- طبعًا أصيلًا من طباعه، وخلقًا راسخًا من أخلاقه.



رائحة الورد

الأدب كرائحة الوردة التي تنعش القلب، ولا بد أن تنفذ هذه الرائحة في نسيج قلوبنا، ونشمَّها في كل مرحلة من مراحل حياتنا.

إن الثراء الذي يجلبه جمع الذهب والفضة زائل، لكن الثراء الذي ينتج عن التحلي بالأدب باقٍ.



مراعاة الأدب

أفضل الأدب معرفة المرء قدْرَ نفسه، لذلك قيل:

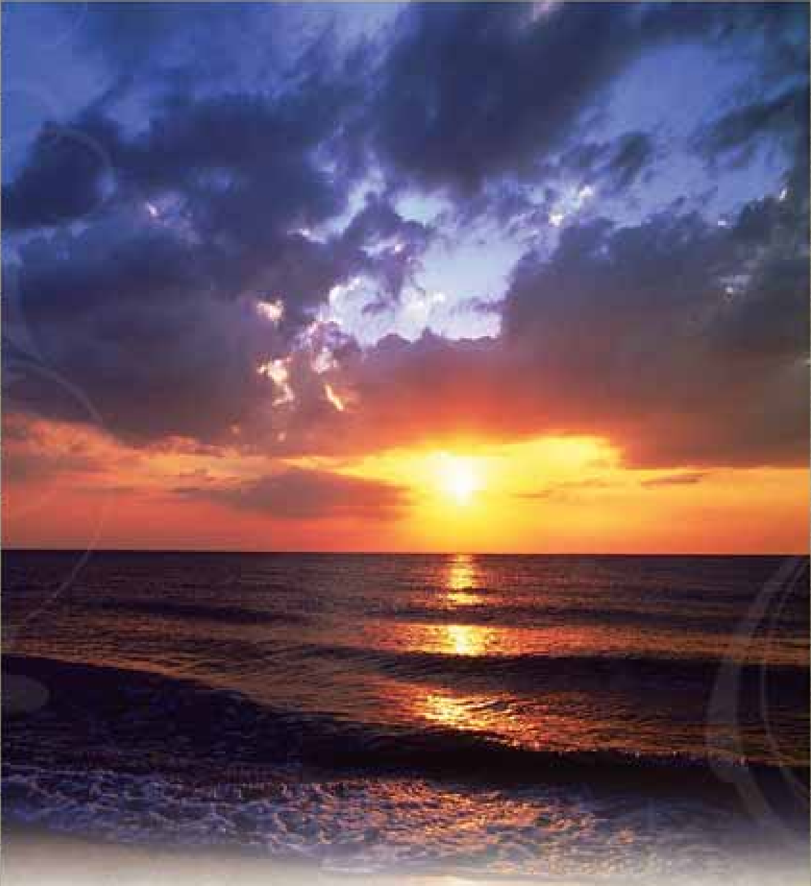
«احفظ لسانك عند العلماء، وقلبك عند الأولياء، ويدَيك عند الطعام، وعينَيك عند الضيافة».

إنما الدين الأدب

يقول أكابر أهل التصوف: «الأدبُ أول طريقنا، وآخره».

ويقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله تعالى:

«سأل عقلي قلبي: (ما الدين؟) فهمسَ قلبي في أذن عقلي، وقال: (إنما الدين الأدب)».



المؤمن الفاضل

ينبغي أن يكون قلب المؤمن طاهرًا طهارة الماء، وواسعًا سعة البحر، ومهما صادف أحداثًا سيئة، عليه أن يكون واعيًا رحيمًا، وعليه أن يكون برَّاق القلب، يعكس اللطف والحسن والجمال، ويمثِّل سماحة الإسلام وطلاقة وجهه.



كن كالوردة

يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله تعالى:

«ينبغي أن تكون كالوردة؛ فترى الأشواك في بستان الدنيا، فلا تتأثر بها ولا تتصف بأوصافها. وإن حلَّت المصائب الشداد، تبشِّر العالَم كله بالربيع».

وكأنَّ الوردة التي تتحمل الأشواك في ساقها تقول للناس بجمال لونها وحسن رائحتها: «انظروا إليَّ بعيون قلوبكم، وكونوا مثلي».



حال أهل القلوب

يلخِّص الشيخ أحمد بن أبي ورد رحمه الله تعالى حال الأولياء بقوله:

«ثلاث إن زادت في الولي، زادت أحواله الحسنة:

١- كلما علا مقامه، زاد تواضعه.

٢- وكلما طال عمره، زادت خدماته.

٣- وكلما كثُر ماله، زاد سخاؤه».



الأحسن والأجمل والأكمل

على المؤمن أن يلامس القلوب بجماله وطيب رائحته، فيكون مثل الوردة التي تبعث الحياة في نفوس المكتئبين، ولا بد أن يكون قوله لينًا وغذاءً للروح، ولا تغيب الابتسامة عن محيَّاه، يواسي كل إنسان بلسانه الرقيق، وعليه أن يكون «الأحسن والأجمل والأكمل» من حيث شخصيته ومعاملاته.

الأحسن: أي يكون عمله الأفضل.

الأجمل: أي يكون لطيفًا لبقًا يطمئن القلوب.

الأكمل: أي يكون واعيًا كاملًا.

فكلِّ مؤمن تحلَّى بهذه الصفات يعكسُ جمال الإسلام وعظمته وجماله وطلاقة وجهه.



إدراك جوهر الإسلام

إن المجتمع الذي أدرك الإسلام شكلًا وروحًا كما ينبغي قد بنى حضارة من الفضائل في كل صفحة من صفحات تاريخه المشرق المملوء بالعز والشرف، والمؤمنون الذين ينتسبون إلى هذا المجتمع إنما هم الأخيار الذين نالوا السعادة في الدارين، أيًا كان الزمان الذي عاشوا فيه.

والسعادة والطمأنينة في الحياة المحفوفة بالمفاجآت والأخطاء مرتبطتان بمقدار التطبيق الصحيح للإسلام.



قمة الحضارة

كل حضارة تمثِّل الإنسان الذي أقامها، وذلك الإنسان يقدم صورةً عن الوسطية والانسجام بصفات الحضارة المنسوب إليها. وحضارة الإسلام قمةٌ لم يصل إليها الإنسان إلا مرة واحدة في تاريخه، فالفطرة البشرية قد جُبِلَت بعلومٍ وأسرارٍ وحِكمٍ إلهية، والقلوب مُزِجَت بالعرفان والعلمِ الحقيقي حتى تطهرت من أهوائها النفسانية؛ فلما تشابه الاستعداد الفطري لأمتنا مع الفيوضات المعنوية في القلوب، ظهرت حضارة عظيمة لا مثيل لها.



حضارة في العمارة

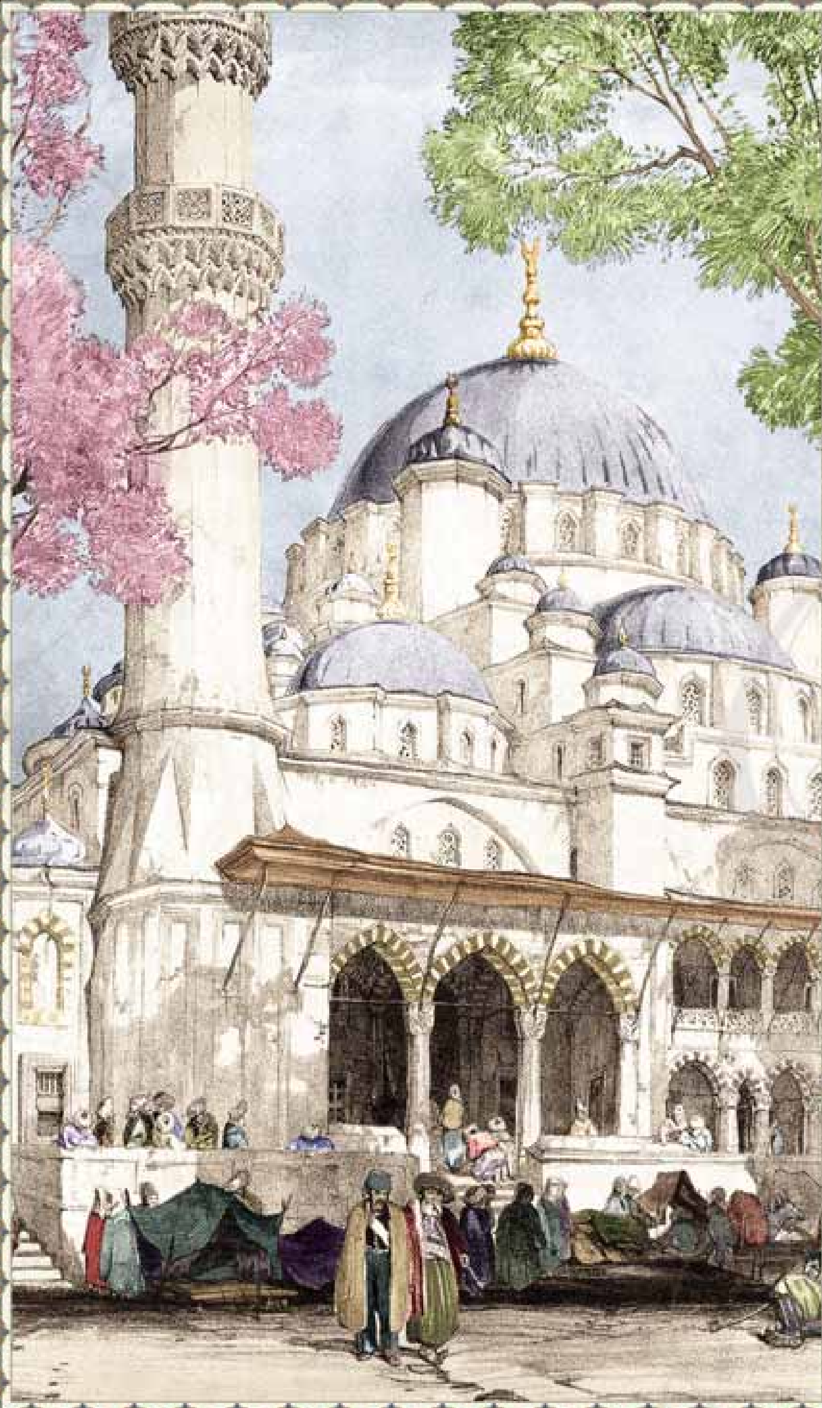
حينما نقف أمام مسجد السليمانية في إسطنبول، نجد أنفسنا كأننا أمام إنسان يرفع يديه إلى السماء داعيًا ربَّه، فحجارة ذلك المسجد تعكس روح أمة الإسلام العظيمة.. وهي إبداع لحضارتنا التي مَزجت المادة بالمعنى.

وإذا نظرنا في التاريخ نجد أنه لم يكن أحد من أجدادنا المسلمين الذين بنوا حضارةً من الفضائل حين يبني داره يمنع ضوء الشمس عن دار جاره، أو يحجب عنه الرؤية، لكننا اليوم نرى الأبنية الشاهقة، وناطحات السحاب التي تُفسِد الروحانية، فتُذكِّرنا بحجارة القبور في المدن التي صرنا نشعر أنها مدن للموتى.



حضارة في الإنسانية

إنَّ كلَّ جزء من الحضارة مُكمِّلٌ للحضارة كلها، ومَثَل ذلك مَثَل الخط أو الزخرفة أو أي شي يكمل التحفة المعمارية، و«الإنسان» مركز حضارتنا، لذلك فإن درة تاجها هو ذلك الإنسان الرحيم الرؤوف الرقيق القلب الذي ربته وهذبته.



أي المجتمعات أعظم حضارةً؟

إذا نظرنا في ماضينا الذي كانت تسود فيه الأخلاق الإسلامية، سنجد أن فقراء الناس وأغنياءهم كان يرأف بعضهم ببعض، فقد كان يعيش الغني والفقير في البلدة نفسها في طمأنينة وسكينة دون أي فروقات في التجمَّعات والأحياء السكنية، وكان كل حي مأوى للأرامل واليتامى والمساكين، فإن كان ثمة مريض في البيت، وُضِعَت ورود حمراء في شرفة المنزل، كي يمر الباعة من أمام البيت دون إزعاج، ويلعبَ الأطفال في مكان آخر.

لقد كان ذلك السلوك نتاجَ تربية عظيمة، فأي مربٍّ اليوم أو أي عالم نفس أو عالم اجتماع يستطيع أن يضع أمامنا مثل هذه التربية؟

إننا نجد اليوم في حفلات الزفاف والأعياد مجموعةً من الناس إذا أرادوا أن يستمتعوا أطلقوا الألعاب النارية، غير آبهين بالمجتمع من حولهم، ولا مراعين لأحوال الرضَّع ولا الحوامل ولا المرضى ولا المكروبين.

فهذا هو الفارق في الإنسانية والرقي في المجتمعَين...

إنها نتيجة مؤسفة لسنين قضاها الناس في انحلال ثقافي وحضاري...



المجتمع المطمئن

إذا ألقينا نظرة على مجتمع عصر الرسول ﷺ، فإننا لن نصادف أي مشكلة اجتماعية أو اقتصادية حقيقية تعصف به، لأن الناس في ذلك المجتمع كانوا يداومون على طاعات وعبادات فريدة في أثرها الاجتماعي والاقتصادي، فمو داومتهم على صيام الفرض والنافلة بإيمان راسخ، كان يحث الإنسان- بمحاسبة النفس- على الرحمة والرأفة واستشعار حال المحتاجين، وكانت مظاهر الرحمة مثل الزكاة والإنفاق والصدقات تحلُّ المشاكل الاجتماعية والاقتصادية. وعلى هذا الأساس أنشأ العثمانيون مؤسسات الرحمة في المجتمع، فلبَّوا حاجات المجتمع المادية والمعنوية بالمساجد والمدارس والتكيات والمستشفيات والسُّبل والمطابخ الخيرية وغيرها من المؤسسات، وضمنوا الطمأنينة والسكينة في البنية الاجتماعية.



نحن وأجدادنا

من نشبه اليوم؟ هل علاقات القرابة والجوار والصداقة تشبه العلاقات التي كانت في زمان أجدادنا أم علاقات غيرهم؟ هل أزقتنا ومدننا وتجارتنا وأسواقنا في هذا العصر تشبه التي كانت في عصر أجدادنا أم عصر أعدائهم؟

من نحن؟

إن أمتنا الأصيلة أتباع أولياء الله والصالحين، وحضارتنا حضارة فضائل فريدة، تضمن الحقوق للناس، وتنشر العدل والرحمة؛ فعلينا أن نكون ممثلين حقيقين لهذه الحضارة في أيامنا هذه.



إنكِ أمة عظيمة!

إن كان فيكِ أناس أوفياء من أهل القلوب جعلوا حياتهم في سبيل الله أمثال الغازي عثمان وخلفائه.

وإن كان فيكِ الفاتح محمد، الذي خاصمه أحد رعاياه ذات مرة أمام القاضي في المحكمة، فكان قدوةً للعالَم في نشر العدالة.

وإن كان فيكِ أهل القلوب، أمثال مولانا جلال الدين الرومي، ويونس أمره، وعزيز محمود هدائي، وآلاف الناس الصادقين الذين يسيرون على نهج هؤلاء العظماء.

وإن كان فيكِ السلطان سليمان القانوني الذي لم ينسَ حتى حقوق النمل.

وإن كانت الأمهات اللواتي يمتلئ صدورهن بنور القرآن يلدن رجالًا صناديد. وإن صغرَت الدنيا في عينَيكِ، وصارت خير الأحوال رضا الله والسعادة في الآخرة، فاعلمي حينئذ أنكِ أمةٌ عظيمةٌ!



لا عرفان كمعرفتكَ عجزكَ

يقول الشيخ موسى أفندي رحمه الله تعالى:

«مِن أعظم نِعَمِ الله تعالى على عبده أن يُعرِّفه عجزَه، ولربما تكون رؤيتيِ لذنوبي وأخطائي أعظم نعمة أُكرِمتُ بها في هذا الطريق المعنوي، لقد أدركت عجزي أمام ربي، فلم تبقَ لي طاقة كي أرى أخطاء غيري وأنشغل بها، فالحمد والشكر له رب العالمين».



الكيِّس مَن عَرف قدْرَه

تبدأ العبودية بمعرفة الإنسان قدْرَه، والإنسان الذي يعرف ذلك حق المعرفة لا يجد مجالًا للتكبر والأنانية، ويغدو أصحاب العلم والعرفان والحكمة متواضعين أسخياء، مثل الشجرة الناضجة المثمرة التي أحنَت أغصانها لتقدم للإنسان ثمارها، فأمثال هؤلاء يجعلون بذلك قلوبهم كنوزًا يستفيد منها الخلق جميعًا.



تاج التواضع

يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله تعالى:

«إن الأرض سلَّمت نفسها للسماء، وقالت: (إني أسيرة، فأنزِلْ عليَّ ما شئت)».

«فحتى لو سقطت النيران من الشمس على الأرض فإنها تعتاد عليها، لقد سلَّمت نفسها بصمت متلقية بوجهها تلك النيران».

«أيها الإنسان إنك جزء من هذه الأرض، تعيش فوقها، فلا تعصِ أمر الله تعالى، ولا تعترض على قضائه وقدره».

«لقد سمعتَ قول الله تعالى: ﴿**فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ**﴾، فالله تعالى يريد أن تكون ترابًا فلا تعصِ أمر الله سبحانه».

«وكأن الله تعالى يقول: (أيها الإنسان، انظر وتفكر، لقد نفختُ من روحي في بدنك الذي خلقتُه من طين، ورفعت لك شأنك، لقد جعلتك مكرَّمًا ولم تكن شيئًا مذكورًا، لقد وهبتك العقل والمحبة)».

«فتحرَّكْ واجعل التراب، أي التواضع، خصلةً وطبعًا فيك، أجعلْكَ خليفةً على كل ما خلقتُ».



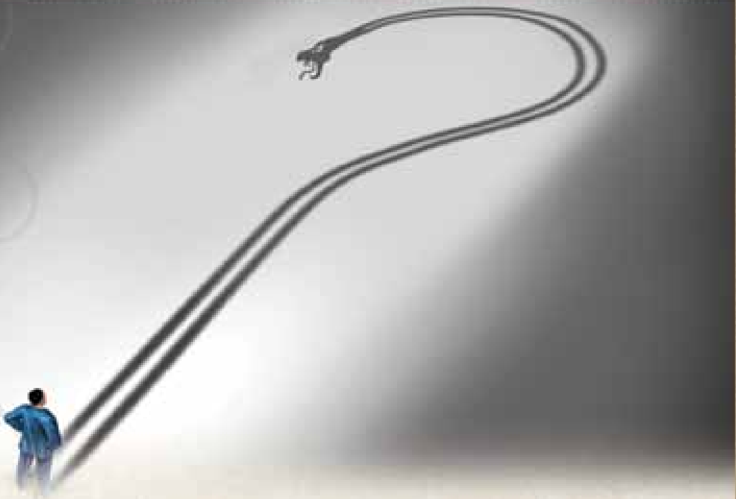
كن متواضعًا كالتراب

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«يا أخي، إن مآلك التراب! فاسعَ لتكون متواضعًا كالتراب قبل أن تمسي ترابًا!».

ويقول مولانا جلال الدين الرومي:

«أيخضرُّ حجرٌ في الربيع؟! فكُنْ متواضعًا كالتراب تنبت عليك زهور مختلف ألوانها!».



الكِبر

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«السيف يقطع عنق مَن له عنق... ولكنَّ ضربته لا تجرح الظلَّ لأنه على الأرض ممدود».

ويقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«إن الذي يظن أن في داخله شيئًا مثل الفستق، يكون كالبصلة لا يجد في داخله إلا القشور».

ويقول سيدنا أبو بكر ﵁:

«إذا تكبَّر العبد لنعمة دنيوية أصابته، أبغضه الله تعالى حتى تذهب تلك النعمة عنه».

ويقول الشيخ الحاج بيرم ولي:

«الكِبر كالحجر الموضوع على الظهر، لا تسبح به ولا تطير».



داء القلب:
الكِبر والعُجب

الكِبر أن يحتقر الإنسان غيره، أما العُجب فإعجاب المرء بنفسه، وظنه أنه أرفع درجة من الآخرين، والكبر والعجب صفتان سيئتان لا تنفصلان، عاقبتهما الشقاءُ في الدنيا والعذابُ الشديد في الآخرة.

إن التوحيد والشرك لا يجتمعان، والكبر حماقةٌ يرتكبها الإنسان حينما ينسب إلى نفسه القوة والقدرة والطاقة التي أكرمه بها الله تعالى.



النِّعم كلها من الله تعالى

إن كل قوة أو بضاعة بين أيدينا إنما هي من الله سبحانه وتعالى، لذلك على الإنسان أن يحذف كلمة «أنا» من قلبه، وأن لا ينسى أنه عبد مخلوق، وأن يعلم أن النعم كلها من الخالق تعالى، ولا يقول: أنا فعلت، وأنا ربحت!، بل يقول دائمًا: منك يا رب، من فضلك يا رب.



حاجتنا للحق تعالى كل حين

سأل سائلٌ سيدَنا يعقوب عليه السلام: «يا نبي الله، يا مَن رُزِقتَ نور القلب وحكمة العقل، كيف وجدت ريح يوسف في قميصه الذي أتوك به من مصر؟، ولم تره حين أُلقي وحيدًا في البئر القريبة منك؟».

فقال سيدنا يعقوب عليه السلام: «إن ما أكرمنا به الله تعالى في هذا الأمر كوميض البرق، فقد تظهر لنا الحقائق واضحة تارةً، وقد تغيب عنَّا تارةً أخرى».

أي إن الله عز وجل إن رفع الحجب للعبد فسيرى ما وراءها، وإن وضعها فلن يرى حتى الحفرة التي أمام ناظرَيه، فالعبد عاجز مهما بلغ مقامُه المعنوي، ومفتقرٌ للطف الله كل حين.



لا تغتر أيها الإنسان!

ما أبلغ تلكم العِبَر، حينما نرى فيلًا يزن عشرة أطنان يقوده طفل صغير عمره عشر سنوات بتسخير من الله تعالى، بينما نرى في الجانب الآخر فيروسًا صغيرًا لا يكاد يُرَى بالمجهر يطرحُ المصارعَ القوي أرضًا، أليس هذا دليلًا على عجز الإنسان.

فعلى الإنسان ألا يجعل الطاقات التي وهبه الله تعالى إياها بضاعةً لنفسه، وألا يتكبر البتة، وألا ينسى صاحب النعم الحقيقي؛ لا، بل عليه أن يبقى في حال شكر دائم لربه، وأن يفهم أنه لا يساوي مثقال ذرة من خردل أمام عظمة الله وقدرته، وأن يلجأ إلى مولاه كل حين.



أبعد هوى النفس ترتقِ الروح

يقول الشيخ أبو الحسن الخرقاني رحمه الله تعالى:

«إذا ما أصابَ قميصكَ شررٌ من التنور، فإنك تهرع لإطفائه! فكيف تأذن للنيران التي تحرق دينك- مثل الكبر والحسد والرياء- أن تفتك بقلبك».

«كما أن الصلاة والصوم فرضان يجب أداؤهما، فكذلك تزكية النفس من أمراضها، وتطهير القلب من أدوائه».

فالكبر منازعة لله تعالى في صفة المتكبر، والأنانية مشاركة لله تعالى في ملكه، وكلا هاذَين الوصفَين لا يتفقان وعقيدة التوحيد في نفس المؤمن.



تحطيم أصنام القلب

على المسلم الموحِّد أن يتجنبَ الأحوال التي تناقض معنى التوحيد وجوهره مثلما يرفضُ الآلهة الباطلة في العالَم الخارجي، ويعلمُ أن الله تعالى هو الرب الحق، ولا بد من تحطيم أصنام القلب الذي هو محل الإيمان، مثل الغرور والكبر والرياء والعجب والهوى والشهوات، مثلما حطَّمَ سيدنا إبراهيم عليه السلام الأصنام التي كان يعبدها قومُه.



المهارة الحقيقية

إنَّ تجنب الانتقام في القوة لا يُعدُّ عجزًا، فالعفو أعظم الفضائل، والإنسان لا يستطيع أن يفعل أيَّ شيء في عجزه، لذلك فإن الفضيلة الحقيقية إنما هي العفو عند المقدرة كما فعل الأنبياء والأولياء، يقول المولى ﷻ في كتابه العزيز:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]



ادفعْ بالتي هي أحسنُ السيئةَ

«الإنسان يغلبه الإحسان»، فإن أحسنَ الإنسانُ إلى عدوه قلَّت العداوة، وإن لم يكن صديقًا ولا عدوًّا صارت بينهما مودة، وإن كان صديقًا زادت المحبة بينهما.

فالإنسان الذي نحلُّ مشاكله إنما هو إنساننا، والمجتمع الذي ننشر فيه المحبة إنما هو مجتمعنا.



الصبر على الجهلة وتحملهم

إنما ترمى بالحجارة الشجرة المثمرة، فعلى المؤمن أن يكون مستعدًّا للأذى الذي قد يلحقه من الجهلة والفُظَّاظ، مثلما تستعد الشجرة المثمرة للحجارة التي ستنهال عليها، وعليه أن يستعد كذلك للصبر على الأذى والجفاء ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى لأن ذلك من الإيمان.

يقول مولانا جلال الدين الرومي الذي كان يرى تجليات الله تعالى في الكون بعين الحكمة:

«صارت الوردة فوَّاحة الرائحة زاهية اللون لصبرها على صداقة الأشواك».



أسلوب الرحمة

كان التابعي الكبير الإمام الشعبي رحمه الله تعالى إذا آذاه أحد يقول- بدل أن يغضب-:

«إن أصبتَ فليعفُ الله عني، وإن أخطأتَ فليعفُ الله عنك».



اعفُ يُعفَ عنك

إن المؤمن يرفع شعار: «لا يُعفَ عمَّن لا يعفو»، فيعفو كثيرًا عن عباد الله تعالى كي ينال عفو الله سبحانه وتعالى، وأما النفعي الذي لا يعفو عن العباد اليوم، فكيفَ له أن يطلب العفو حينما يقف بين يدي الله تعالى؟!

إن علة عدم العفو الغفلةُ التي تصيب الإنسان، فالله سبحانه وتعالى صاحب العفو الحقيقي، والمؤمنون يعفون على قدر محبة الله تعالى في قلوبهم.

فمن علامات نضج القلب أن يقدر الإنسان على العفو عمَّن ظلمه، وكأنه لم يُظلَم.



ستر العيوب

يستر الله تعالى- باسمه الستَّار- ذنوبَ عباده، ويجعلها نُكتًا سوداء خفيَّة في قلوبهم، وذلك من لطفه وكرمه ورحمته، فلو ظهرت آثار الذنوب في الجباه دون القلب، لما استطاع أحد النظر إلى وجه غيره.

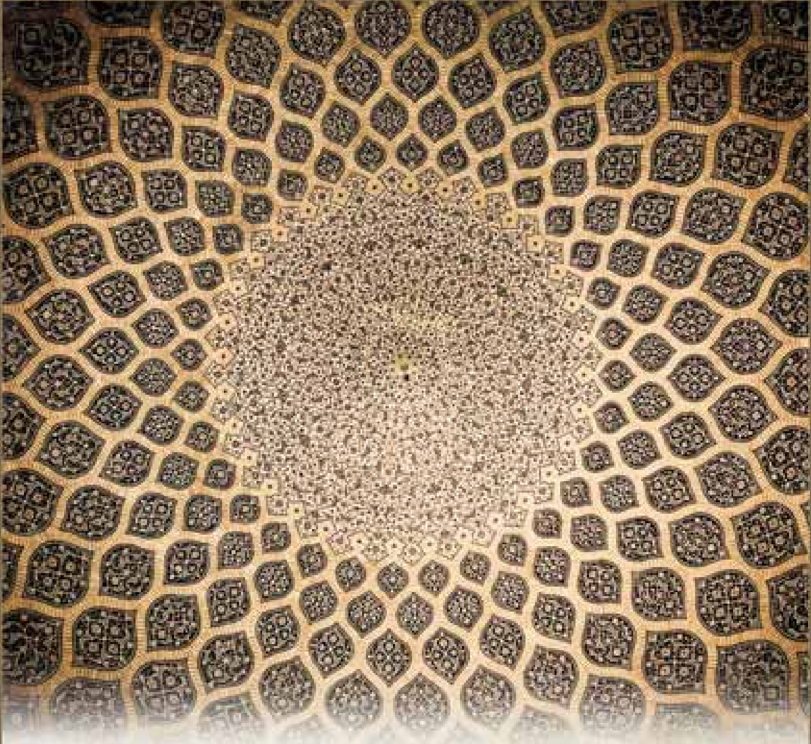


كن بنَّاءً لا هدَّامًا

إن رحمة الله ﷻ تسبق غضبه، أي إنه سبحانه وتعالى يعفو عن كثير من ذنوب عباده بالتوبة النصوح، ويؤجرُ صاحبَ أصغر عمل صالح أجرًا عظيمًا، وبكرمٍ يليق بشأنه سبحانه وتعالى. وعلى المؤمن أن يعيش حياته بأسلوب الرحمة هذا دائمًا، ويسعى ليكون مُحييًا للقلوب لا هدَّامًا لها.

ولمَّا طُلِبَ من رسول الله ﷺ أن يدعو على الكفار في إحدى الغزوات، قال:

«إني لم أبعث لعانًا، وإنما بعثت رحمة». [مسلم، البر، ٨٧]



لا تجعل للحقد مكانًا في قلبك

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إن كنت تريد أن ترى الجنة في الدنيا، فصاحِبِ الجميع، ولا تحقد على أحد! لأنك إن ذكرتَ أخاكَ بالخير، ستكون مسرورًا دائمًا، وذلك السرور إنما هو جنة الدنيا عينها؛ وإن ذكرتَ أحدهم بالحقد، ستكون مغمومًا دائمًا، وذلك الغم إنما هو نار الدنيا عينها».



الحب في الله والبغض في الله

إن المحروم مِن هَدْي الإيمان لا يعرف أين يضع محبته، فهو كسفينةٍ كُسِر مِقودها في عرض البحر، فلا تعلم في أي دوامة هي هاكلة.

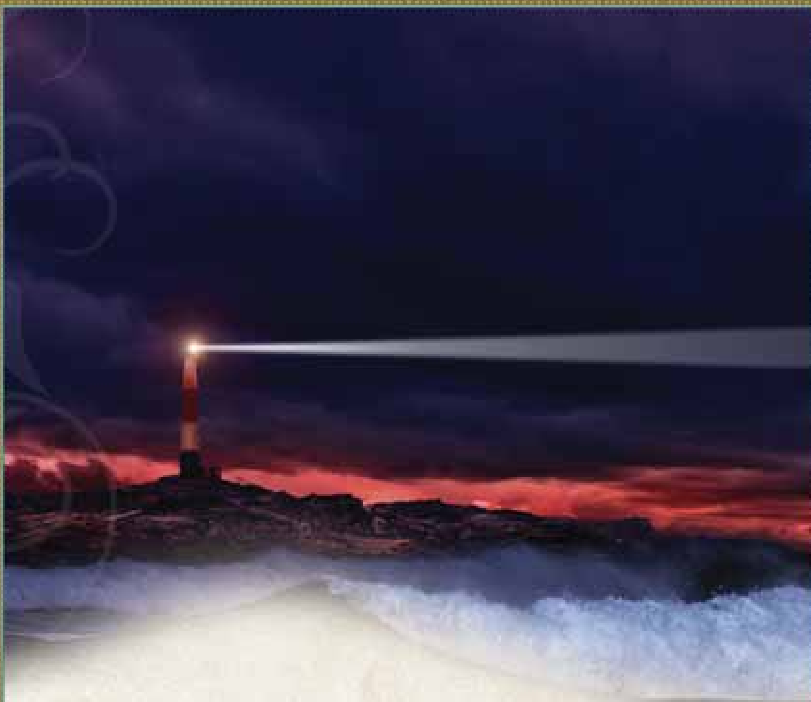
فالمحبة حينما لا تجد من يليق بها تكون من أشد ضروب التبذير في الحياة، والمحبة التي تكون محصورة بين فكَّي الأهواء النفسانية والمصالح الدنيوية تشبه تلك الزهور التي تتفتح على قارعة الطريق، ثم لا تلبث أن تذوي أو تدوسها الأقدام، طال الزمان أو قصُر، فما أسوء أن تُرمى جوهرة ثمينة في سلة القمامة، وما أسوء أن يكون الشيء في يد مَن لا يستحقه.



من نحب ومن نكره؟

الإيمان، محبة مَن يليق بالمحبة، وكرهُ من يستحق الكره، ومن شروط الإيمان محبةُ الله تعالى، ومحبة مَن يحبهم سبحانه وتعالى، وإخراجُ من لا يحبهم الله تعالى من القلب.

والإنسان يرتقي في معارج المقامات المعنوية بمقدار ما يليقُ المحبوبُ بالمحبة، لذلك فإنه من الخسران الشديد محبة من لا يستحق المحبة.



الصديق الحقيقي

يركض كثير من الناس في هذا الزمان وراء منافعه ومصالحه، فالحذر الحذر من الاغترار بالذين يدَّعون الصداقة ممَّن لم يُمتحَنوا في وقت الضيق، وهذا أمر مهم في موضوع اختيار الصديق.

يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله تعالى:

«كلُّ امرئ صديق لك في صحتك وسلامتك وعافيتك وأمنك، ولكن أين الخليل والحبيب حين تكون مهمومًا مغمومًا؟ اللهُ وحده من يكون معك!».



حينما تزول المنافع

هل نحن أناس مخلصون حقًّا في محبتنا، وفي كل عمل صالح نقدمه؟، أم أن كل واحد منا ذو وجهين، جميع أعماله تبدو أعمال خير، ولكنه ينتظر من ورائها منافع لنفسه؟

سنصل إلى جواب لهذا السؤال حينما نحاسب أنفسنا محاسبة صادقة، أو حينما نفقد- بصورة قاسية- تلك المنافع في لحظة لا نتوقعها...

عندها سنرى بأم أعيننا كيف تزول فقاعات المحبة الكاذبة.

عندما نفقد منافعنا، هل سنغضب على أولئك الذين افترقت طرقهم عنا؟ أم على أنفسنا حينما ربطنا محبتنا بحبال المنافع البالية؟



الإخلاص في الصداقة

يقول الصحابي عبد الله بن عباس رضي الله عنه:

«أَحِبَّ في الله، ووالِ في الله، وعادِ في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك... وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئًا».



المؤثِّران

ثمة مؤثِّران عظيمان في روح الإنسان:

١- اللقمة الحلال التي تدخل فمه.

٢- والأحوال الروحانية لمن يصاحبهم.

اللهم احشرنا في زمرة الصالحين

سراية الأحوال

يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى:

«يا بُني، إن كان ثمة أمر يجب أن تهتم له فهو مَنْ تصاحبهم، واعلم جيدًا أن سلةً صالحةً من التفاح لا يمكن أن تُصلِح تفاحة رديئة بينها، غير أنَّ تفاحة رديئة واحدة كافية لإفساد السلة كلها، لذلك كن دائمًا مع الصالحين».

إن القسوة والشدة تسري إلى القلوب من الغافلين والفاسقين مثلما تسري الطمأنينة والراحة من الصالحين والصادقين، فبينما تنشرح الصدور بالنسيم العليل الذي يهب من رياض مزيَّنة بأندر الورود وأزكاها عطرًا، تضيق الأنفاس بالريح التي تهب من المزابل حاملةً معها أخبث الروائح، لذلك فإن سرطان الحياة المعنوية إنما هو العيشُ بتتبع الأهواء، وصحبةُ الظالمين والفاسقين، والأُنسُ بالغافلين الذين ينسون الله تعالى ويوم الحساب.



أحسِنْ اختيار صاحبك

يقول الشيخ سعدي الشيرازي رحمه الله تعالى:

«لقد نال قطمير- كلب أصحاب الكهف- شرفًا عظيمًا لصحبته الصادقين، وصار له ذكر في القرآن الكريم، أما زوج سيدنا نوح وزوج سيدنا لوط فقد دخلتا النار لتعاطفهما مع الفاسقين وصحبتهما إياهم».

ويقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: «إن صحبة الفاسقين والغافلين الظاهرية تتحول إلى صحبة ذهنية مع مرور الوقت، وهذه الأخيرة تتحول إلى صحبة قلبية فيما بعد، وهو ما يعني انجرار الإنسان تلقاء الهلاك رويدًا رويدًا».



حفظ القلوب

إن أكثر الناس في أيامنا هذه يهيم في غفلة مريعة، تدفعهم التيارات نحو الظلام المجهول، كجذوع أشجار تتقاذفها السيول يمنة ويسرة،، فإذا لم نحم إخواننا من هذه التيارات، جاء مَن يغيِّر أحوالهم كيفما أَراد، فالقلوب لا تقبل الفراغ مثلما لا تقبله الطبيعة، يقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

«نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل».

كونوا مع الصادقين

مَن في اليمن بجانبي

المقصود من صحبة الصالحين الصحبة بالقلب، أي الإحساس كما يحس الصالحون والصادقون في الحياة وأمام أحداثها، والعمل مثلما يعملون، فإن كانت الصحبة كما ينبغي، فالصحبة الظاهرة والفراق الظاهري سواء.

فقد قيل:

«مَنْ في اليمن بجانبي، ومَنْ بجانبي في اليمن».



فلتتحد القلوب

إن اختلافَ الألوان لا يجعل القلوب مختلفة، بل إنه أحيانًا يقرِّبُ بين القلوب ويجعلها تتكامل بلذة الشوق.

لكن إن كان ثمة فراق بين القلوب، فلا القرب الجسمي، ولا صلة الدم، ولا الزواج، ولا الصداقة، تعني القرب الحقيقي، فالقرب النافع عند الله سبحانه وتعالى إنما هو صحبة الصالحين بالقلب.



الحرمان الذي يحمي من الشر
لطفٌ من الله تعالى

كان داود عليه السلام يتضرع إلى الله سبحانه وتعالى قائلًا:

«إذا رأيتني أجاوز مجالس الذاكرين إلى مجالس الغافلين فاكسر رجلي، فإنها نعمة تنعم بها عليَّ».



المجالس المعنوية: الصُّحَب

تأتي «الصحبة» على رأس الوسائل التي يُقصَد بها التأثير في قلب الإنسان أثناء تربيته المعنوية، فمجالس الصحبة مراكزُ لإعادة تأهيل القلب.

والذي يمنح الصحبة تأثيرها الفريد إنما هو «الإخلاص»، فبالإخلاص تنضج الشخصية ويستقيم السلوك، وذلك عبر نفاذ المعاني التي تحملها الكلمات إلى القلوب، وفي الصحب المعنوية التي يظللها الإخلاص تستفيد القلوب بعضها من بعض، كما هو الحال في قانون الأواني المستطرقة في الفيزياء، ويبدأ انتقال الأحوال وتأثير بعضها في بعض، وتتشابه الأذواق والمشاعر والآراء مع مرور الوقت.



آداب الصحبة

إن الصحب التي يحضرها المرء شاعرًا كأنه يؤدي عبادةً من العبادات إنما تكون انعكاسًا لصحب رسول الله ﷺ الذي كان وما زال مركز الفيض المعنوي، ومَثَله مَثل الشمعة التي نوقد بها شموعًا كثيرة، لذلك على الذين يحضرون الصحب أن يتحلوا بالأدب، وينصتوا إلى الصحب كأنهم يحضرون حلقةً من حلقات النبي ﷺ، عندها ستنتقل الفيوضات إلى قلوبهم.



إحياء القلوب

ثمة أناس صاروا من الماضي مع أنهم يحيون معنا، وثمة أناس عاشوا قبل عصور لكن أنفاسَهم العطِرة التي كانت تُحيي القلوب ما زالت نابضة بالحياة، يقول مولانا جلال الدين الرومي الذي ما زال ذِكره حيًّا في هذا الزمان:

«استعمل عقلك، واستمع إلى نصائح الأولياء بعقلٍ واعٍ، استمعْ كي تتخلص من الخوف والحزن، وتصل إلى اليقينِ والراحة المعنوية. إنَّ كلماتِ أولياء الله كنهر ماؤه عذب فرات، فحين تسنح لك الفرصة، اشرب من هذا الماء حتى الارتواء، لعلَّ الأزهار المعنوية تتفتح في قلبك».



منبع الفيوضات: أولياء الله

لقد وصل أولياء الله إلى منبع النور الإلهي، وتجلى ذلك النور على نفوسهم نارًا تحرق الميول النفسانية، فغدوا مركز جذب نوراني تتوق إليهم الأفئدة، وتهوي إليهم القلوب، وتنجذب نحوهم الأرواح، محبة واحترامًا واسترشادًا، فقد خلَّص كل واحد منهم نفسه من العلائق الدنيوية، وانفلت من جاذبية الدوران حول فلك الذات والكبر والعُجب والغرور.

فهولاء الأولياء استوعبوا ظاهر الدين وباطنه كما ينبغي، وأدركوا حقيقة الدنيا والآخرة، فترسَّخ إيمانهم وازدادت تقواهم، وهم قدوة لنا في كل زمان، يمثلون لنا أخلاق النبي ﷺ وإرشاده ومعاملاته.



أولى ثمار الإيمان

إن أولى ثمار الإيمان الكامل «**الرحمة**»، وأبرز مظاهر الرحمة «**خدمة**» المخلوقات في سبيل رضا الله تعالى، والرحمة شعار المؤمنين و هويتهم المعنوية.

والمؤمن الرحيم جواد متواضع من أهل الخدمة، وهو طبيب القلوب الذي يبعث الحياة فيها، ويُذهِب حيرتها وتيهها.

وكثيرًا ما يُعرِّفنا الله سبحانه وتعالى ذاتَه باسمَيه «الرحمن» و«الرحيم»؛ لذلك فإن أفضل طريق للتقرب إلى الرحمن الرحيم سبحانه إنما هو الرحمة بمخلوقاته.



منبع الرحمة: الصيام

إن الصيام أفضل عبادة تعلِّمنا الرحمة وتغذِّيها، ولا بد من تربية النفس بالجوع حتى تمتلئ قلوبنا بمشاعر الرحمة، وتمتد أيدينا لعون الضعفاء والمحتاجين، وتشارك قلوبنا همومهم، ونقف إلى جانبهم في مآسيهم.

وعندما يصوم المرء ينجو قلبه من تسلط النفس، فتبدأ الفتوحات الربانية، وتسمو الأرواح في آفاق السلامة، والرحمة التي نتعلمها من الصيام ونعيشها خلاله كالبحر الزاخر بالأسرار الكثيرة.



الشعور بالمسؤولية

سُئِل سيدنا يوسف عليه السلام لما مرَّت عليهم سنون عجاف: «إنك حاكم على خزائن مصر، فلماذا تجوِّع نفسَك، ولا تأكل حتى تشبع؟». فقال عليه السلام:

«أخشى إن شبعتُ ألا أشعر بالجياع!».

فعلى الأغنياء أن يضعوا أنفسهم في مكان الفقراء، ويعلموا أن الله تعالى كان يستطيع أن يجعلهم فقراء، ويجعل الفقراء أغنياء، وعلى كل غني أن يقول لنفسه: «ما دام الله تعالى أكرمنا بفضله وجعل هؤلاء الفقراء محتاجين، فهم أمانةٌ في أعناقنا، مثلما جعل الضعفاء أمانة في أعناق الأقوياء، وجعلنا مسؤولين عنهم، وأمرنا أن ننفق عليهم شكرًا على النعم التي أكرمنا بها».



تربية روحانية: شهر رمضان

ينبغي للمسلم أن يعلم أن الإسلام ليس طقوسًا تُؤدَّى في شهر رمضان أو أيام معينة فحسب، بل هو حياة قائمة على التقوى ما دام الإنسان في هذه الدنيا. إن شهر رمضان مدرسة للتقوى، أما العيد فهو شهادة معنوية بإتمام هذا الشهر الفضيل كما ينبغي، والعيد يومٌ مبارك يشعر فيه المسلم بتجلٍ من تجليات يوم الوصال السعيد، ذلك اليوم الذي يقف فيه بين يدي الله تعالى وقد فاز في امتحان التقوى، والعيد الحقيقي إنما هو رضا الله سبحانه وتعالى عنا، فعلينا أن نغتنم أيام رمضان الفضيلة، ونُسعِد فيها اليتامى والفقراء والمحتاجين والمساكين، حتى ننال نفحة من تجليات رحمة الله تعالى.



المنكسرة قلوبهم

قال موسى عليه السلام:

«يا رب أين أبغيك؟»

قال:

«ابغني عند المنكسرة قلوبهم».

فالطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، وخير الطرائق تفريج هموم قلب يكون محلًّا لنظر الله تعالى.



المؤمن مسؤول عن أخيه المؤمن

حينما يرى أحدنا مريضًا عليه أن يقول لنفسه:كان من الممكن أن أكون مكانه، إن هذا المريض يحتاج إلى الرأفة والرحمة والاهتمام ممَّن حوله، وعليَّ أن أتقرب إليه، وأسعى لتفريج همومه، فذلك وسيلةٌ لشكر الله تعالى على نعمة الصحة التي أتنعم بها.

وقد كان نبينا ﷺ كثيرًا ما يسأل صحابته: «مَن عادَ منكم مريضًا؟».

وعندما يرى أحدنا حادثًا مروريًّا عليه أن يقولَ لنفسه: كان من الممكن أن أكون أنا، أو أحد من أقاربي في هذا الحادث.

ونشكر الله تعالى على نعمة الحياة والصحة والعافية.

وعندما نرى يتيمًا، ينبغي أن يذكِّرنا ذلك اليتيم بالنبي ﷺ الذي وُلِد يتيمًا، فنتفكر في المهام الملقاة علينا تجاهه، وأننا مسؤولون عن هؤلاء اليتامى.



مصادر الرزق والبركة

يقول الشيخ سعدي الشيرازي رحمه الله تعالى:

«يشتري أولياء الله بضاعتهم من الدكاكين المهجورة التي لا يمر بها أحد».

«يقف أولياء الله إلى جانب أولئك البائسين الذين لا مؤنس لهم ولا رفيق، ويزورون الغرباء، ويبحثون عن المحتاجين المتعففين، وترى أولياء الله هؤلاء ينظرون إلى المخلوقات بنظرة الرأفة والرحمة التي ينظر بها الخالق إلى مخلوقاته، لذا فهم لا يفوِّتون الفرص العظيمة حين يرون أبواب الأجر الكثيرة التي لا ينتبه إليها أغلب الناس لغفلتهم، بل يطرقونها كي ينالوا الثواب».

﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]



امتحان الضمير

إن الشعور بالمسؤولية النابعة من الأخوة في الدين أمرٌ عظيمٌ، فعلى المؤمنين أن يكونوا كأعضاء الجسد الذي يعيش على قلب واحد، حتى لو كانت أجسادهم مختلفة.

إننا نخضع لامتحان يجب أن نشعر فيه بهموم إخواننا في الدين، مثلما يشعر الجسد كله بألم عضو من أعضائه.



الأخوَّة أولا

لقد بيَّن نبينا محمد ﷺ لنا أنَّ على المؤمنين أن يكونوا كالبنيان المرصوص، وأنه ما آمن به من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه.

إن شرفَ المؤمن وفضيلته أن يكون قادرًا على التفكير بسعادة أخيه في الدين وطمأنينته قبل نفسه، أي قدرته على الانتقال من الأنانية إلى الإيثار.






كم مقدار إيثارنا؟

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«علَّمني الشمس التبريزي رحمه الله تعالى أدبًا عظيمًا حينما قال: (إذا كان في الدنيا مؤمن واحد يشعر بالبرد، فلا حقَّ لك في أن تتدفَّأ).

ولأنني أعلم أنه ثمة مؤمنون في الأرض يشعرون بالبرد، فلن أشعر بالدفء ما حييت».

فيا تُرى، هل تفيض قلوبنا بمشاعر الرحمة بالمظلومين من المسلمين في كل مكان في هذا العالَم؟ وكم كنَّا سنتأثر لو كان ولد أحدنا أو ابنته بين هؤلاء المظلومين؟ كم نتأثر حينما نرى آلام إخواننا في الدين؟ كم تدمع عيوننا حينما نرى مآسي إخواننا؟ كم تتحرك ألسنتنا للدعاء لهم؟ كم نسعى لنكون بلسمًا لجرحانا؟



قلوب تنبض من أجل الأمة

يقول الشيخ أبو الحسن الخرقاني رحمه الله تعالى:

«إن أيَّ أخ لي في الدين من الشام إلى تركستان إذا ما دخلَتْ إصبعه شوكةٌ، فكأنما دخلت إصبعي؛ وإذا أصابت حجرةٌ قدمَه، فستؤلم قدمي؛ وإن كان هناك حزن في قلب ما، فذاك القلب قلبي».



آفاق الرحمة عند المؤمن

يلخِّص الشيخ إسماعيل عطا حال قلب المؤمن في نصيحة من درر نصائحه، فيقول:

«كن ظلًّا في الحر، وقفطانًا في البرد، وخبزًا في الجوع».



امتحان الأخوة

لا يختلف اثنان على أنَّ من الذنوب العظيمة أنْ لا يُعِين المسلمُ- مع استطاعته- أخاه المسلم المظلوم أو الأسير في أي مكان في العالَم.

والأحوال المأساوية التي يعيشها إخواننا في الدين اليوم في سوريا ووفلسطين وأفريقيا والبلدان الأخرى إنما هي امتحان إلهي يدفعنا إلى محاسبة أنفسنا، وإن لم يكن عندنا طاقة لعون إخواننا هؤلاء، فلنتذكرهم دائمًا في أدعيتنا على الأقل.



الرحمة بالخَلق لأجل الخالق

ترى المؤمن مواسيًا الناس فِي همومهم ومحنهم، وكأن قلبه اتسع ليجتمع فيه همُّ كلِّ مصاب، فغدا منبع الرحمة التي تعمُّ المخلوقات كلها، فمَن منَّا يعلم الأسرار التي يراها، والحِكَم العظيمة التي يطَّلع عليها؟!



الاهتمام بأمر الأمة

غاية المؤمنين ومقصودهم سعادةُ الخَلق وطمأنينتهم، فهؤلاء طهَّروا أنفسهم من أنانية «نفسي، نفسي»، ونالوا إيثار «أمتي، أمتي».

وصارت قلوبهم تهتم بهموم إخوانهم، وتطمئن بطمأنينتهم. وعلموا أن نجاتهم من نجاة إخوانهم في الدين، وأنه بلذة سعادتهم تغدو أرواحهم طاهرة مطهرة.

يقول الشيخ سعدي الشيرازي رحمه الله تعالى:

«إذا أردتَ أن تُفرَّج همومك، فكن بلسمًا لهموم المهمومين».



المسلم لا يكون أنانيًّا

لا يرتقي المؤمنون في درجات الكمال ما لم يتخلصوا من وساوسهم وأهوائهم النفسانية ويهتموا بأمر جماعة المسلمين.

وعلينا أن نتذكر دائمًا أن حسابنا لن يكون يسيرًا ما لم نشعر بعظم مسؤوليتنا تجاه إخواننا في الدين.

فالله سبحانه وتعالى يذمُّ الإنسانَ البخيل الأناني الفظ الذي لا يفكر إلا في منافعه.



في السعي رحمة، وفي الغفلة مشقة

ثمة سر عظيم في الخدمات الخالصة لوجه الله تعالى، إذ يتكفل سبحانه وتعالى بهموم مَن يخدم هذا الدين المبين، وينشغل بهموم العباد أجمعين، أما الأنانيُّون الذين جلُّ اهتمامهم قائم على همومهم ومصالحهم الشخصية فيتركهم المولى سبحانه يكابدون تلك الهموم وحدهم، لا ناصر لهم ولا معين.



مفتاح السعادة الأبدية: الرحمة

إن الإنسان الذي لا يعرف الرحمة فقدَ أعظم كنز، وأضاعَ مفتاح باب السعادة.

وإذا استطعنا أن نجعل الرحمة فوق أنواع المحبة كلها، فإننا حينها سنسمع آهات المحتاجين والعاجزين كما ينبغي.

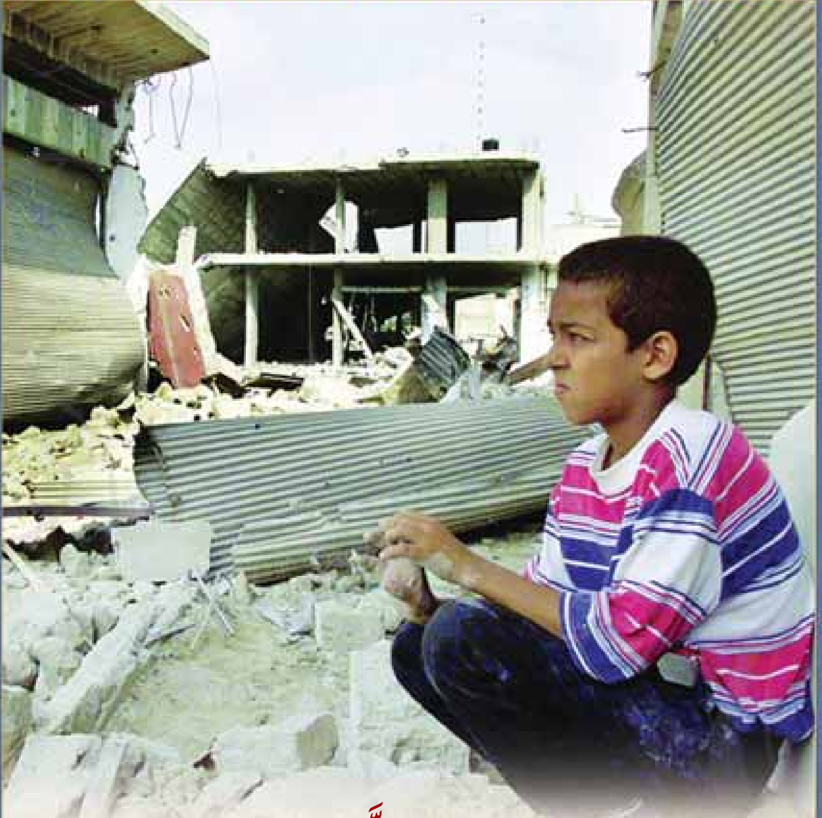


الفراسة

يجب أن يكون قلب المؤمن رقيقًا حسَّاسًا، فيغدو كالأشعة السينية يفهم حال أخيه من ظاهره، ويشعر بلزوم تعويضه وتقديم العون له، يقول الله ﷻ مبيِّنًا ضرورة أن يكون لدى قلوب المؤمنين هذه الرقَّة في المشاعر:

﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣]

فعلى صاحب الفراسة أن يؤدي ما يُتوقَّع منه قبل أن يُطلَب منه، فيكون كالشمس التي تشرق قبل أن يطلب الناس ضوءها وحرارتها.



كيف هي رقَّة قلوبنا

يا تُرى كم تشبه قلوبنا قلب رسول الله ﷺ في رقَّته؟ وكم نطبِّق ما أمرنا به نبينا؟ وكم نقتدي به؟ هل لدينا قلب قادر على معرفة حاجة إخواننا المنكسرة قلوبهم، دون أن يعرضوها علينا لحيائهم وعفَّتهم؟ هل في قلوبنا إيثار يدفعنا إلى قول: «أخي في الدين أولًا» بدل قول: «نفسي أولًا»؟ كم يدفعنا إخواننا المهاجرون إلى بلادنا إلى السعي لعونهم؟ كم نفكر بأحوالنا، وكم نفكر بأحوالهم؟



الرحمة التي تشمل المخلوقات كلها

المؤمن ليس كالقنديل الذي يضيء بيته فحسب، بل هو كشمس الرحمة والرأفة يشع في سماء الفضائل، فيضيء بنوره كلَّ من اسودَّت حياته، ويمنح الأمان لكل غريب مسكين يرتعد قلبه، فأفضل مرآة يمكن بها مشاهدة سعادة العيد الحقيقية إنما هي القلوب المنكسرة التي أدخلنا عليها السعادة.



أهل القلوب

مَنْ نضج قلبه، وفنيت في العبادات نفسه، تراه متجردًا من وجوده الفاني، ومن كينونته البشرية، فيرى ذاته أقل الناس شأنًا، وآخرهم رتبة، وأدناهم منزلة، فيسير في ذيل القافلة خادمًا مطيعًا، وعبدًا مستكينًا، رقيق الحال، منجذبًا دومًا نحو المنكسرة قلوبهم، ذوي الهموم والبائسين، اليتامى والمرضى والمحزونين، وغيرهم من القلقين؛ هو دائمًا معهم يواسيهم ويؤازرهم ويشاركهم أتراحهم، ويخدمهم بقلبه الناضج الرحيم، ويغدو اليد التي تمتد لتنقذ أولئك الذين غرقوا في دوامات أهوائهم النفسانية، والمنار الذي ينير الطرق المظلمة، والمرشد الذي يدل الضالين إلى الصراط المستقيم.



إحياء الأخوة

يأمر الله ﷻ المؤمنين أن يكونوا كاليدين تغسل إحداهما الأخرى؛ والمقصود هنا أن يعوِّض المرءُ أخاه عمَّا ينقصه ماديًّا أو معنويًّا، وأن يشاركه في السراء والضراء، وأن يستر عيوبه، وأن يعفو عن تقصيره، وأن يتواصى معه دائمًا بالحق، وأن يراه خيرًا من نفسه.



حقوق الأخوة

عن أنس بن مالك ﵁ قال:

«كان رسول الله ﷺ إذا فقد الرجلَ من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه، فإن كان غائبًا دعا له، وإن كان شاهدًا زاره، وإن كان مريضًا عاده». [الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ٢، ص٢٩٥]

أول شروط الأُلفة ترك الكُلفة؛ أي لا يكون المرء حملًا على أخيه، بل يخفِّف من حمله ما استطاع، فالذي لا يتكلَّف يُؤلَف، والذي لا يُتعِب غيره يكون محبوبًا.



المحبة

المحبة تسري بين القلوب بلا انقطاع، فترى المحبَّ لا يفتأ يذكر حبيبه كل حين، ويقدِّم له بسخاء كل ما يستطيع، فيحيا حياته في طمأنينة تلك التضحيات.

وإذا أردنا أن نعرف مقدار محبة الله ورسوله في قلوبنا، فعلينا أن ننظر إلى النعم الفانية التي نجعلها وسيلة لنيل محبة الله سبحانه وتعالى.

وحذارِ أن تكون المحبة مجرد عبارات تبقى حبيسة اللسان، ولاَ تستقر في الفؤاد.



ميزان المحبة: التضحية

إن المحب يضحي، ويتلذذ في تضحيته، على قدر حبه لحبيبه، حتى إن المحب قد يفدي محبوبه بروحه، والإنفاق على خَلقِ الله سبحانه وتعالى أجمل مظاهر محبة المحب لحبيبه.

إن قوة محبتنا لله ورسوله تكون على قدر ما تحملنا هذه المحبة على التضحية بأنفسنا وأموالنا، وبكل ما استطعنا في سبيل الله تعالى.

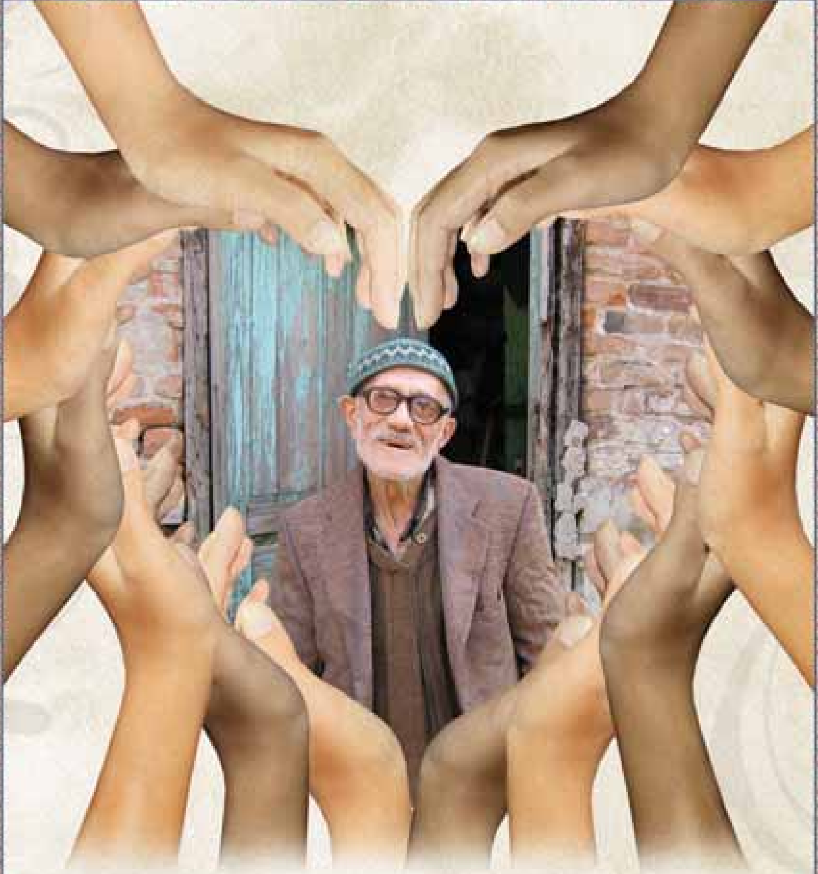


لا بد من دفع الثمن

إن الإنسان يدفع أغلى ما يملك في سبيل المحبة، فمقدار حبنا لشيء ما يُقاس بالتضحيات التي نقدمها لأجله، وبحجم الخطر الذي قد نتعرض له في سبيله.

ومحبة الله تعالى تقتضي تضحية حقيقية، لكن ذلك لا يكون إلا بترك المحبَّات الفانية، وحينما تبلغ المحبة الكمال، تبلغ التضحيات في سبيل المحبوب أعلى درجاتها، وحينها يصبح الجفاء صفاءً.

ولا ننسى أننا أتينا إلى هذه الدنيا دون أن ندفع أي ثمن، لكننا مجبرون على دفع بعض الأثمان اليوم كي نبلغ السعادة والسلامة في الآخرة.



فائدة الخدمة

أهل الخدمة كالشمس والقمر في السماء، يبثون الحياة حتى في الأماكن المنعزلة والأراضي القفار، وكلما أناروا مَن حولهم ازدادوا نورًا على نور، فالخدمة وسيلة نفع للآخرين، وهي من جانب آخر تضمن سمو صاحبها ورفعة شأنه على قدر سعيه وإخلاصه، حتى إن الفائدة التي تعود على صاحب الخدمة أكثر من تلك التي ينتفع بها متلقِّيها.



الخدمة نعمة

يقول الشيخ سعدي الشيرازي رحمه الله تعالى:

«اشكر الله تعالى إذا عملت خيرًا، فهو سبحانه قد وفَّقك لذلك، ولم يجعلك- بلطفه وإحسانه- تضيِّع عمركَ هباءً، إنَّ مَن يخدم السلطان لا يستطيع أن يمنَّ عليه بخدمته، بل عليه أن يشكره لأنه استعمله».



آداب الخدمة وموازينها

ينغبي أن يكون قلب المرء الذي يقدِّم الخدمة كالتراب الخصب، تدوس عليه المخلوقات كلها وتترك بقاياها، لكنه سرعان ما يتطهر، فتنمو نباتات خضراء متنوعة تقتات عليها المخلوقات.

وكما أنه من المحال أن تفقد الشمسُ قدرتها على بث الحرارة، كذلك من المحال أن ترى امرأً ذا قلب سليم لا يتعاطف مع الناس، ولا يسعى لخدمتهم، ولا يتأثر أمام محنهم وشدائدهم ومصائبهم، فيقدِّم يد العون لهم.



اختلاف أحوال القلب في الخدمة

لا شك أن أهمية حال القلب أثناء تقديم الخدمة- المادية أو المعنوية- لا تقل عن أهمية السعي لتقديمها، فقبول الخدمة عند الله سبحانه وتعالى مرتبط بأدائها في ظلال «الإخلاص والتقوى والأدب»، لذلك كان من أقوال أهل الله:

«الخدمة مهمة، لكن الأدب في الخدمة أهم»، فيوضِّحون بذلك ضرورة أدائها بقلب رقيق وتواضع جم وأدب رفيع.



المؤمن يبحث عن الخدمة دائمًا

المؤمن الرحيم منبع إيمان وأمل، يعرف أداء الخدمة في كل مجال برأفة ورحمة، فالخدمة خطوة سامية توصل القلوب إلى رضا الله سبحانه وتعالى، والمؤمن الذي لديه روح الخدمة يعلم طرق إيجاد الفرص لتقديم الخدمات.

وأهل الخدمة كالنهر يبعث الحياة في الناس والحيوانات والأشجار والورود والسنابل والبلابل على طول مجراه، وما مصب هذا النهر إلا بحر الوصال مع الحق سبحانه وتعالى.



كل وقت وقتٌ للسعي

يقول المولى جل جلاله في كتابه العزيز:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]

ما أكثر العبر في نزول هذه الآية الكريمة تنبيهًا لبعض الصحابة الكرام بعد الهجرة حين فترت همتهم، وتراجع زهدهم وتقواهم بعد أن تنعموا قليلًا بالراحة، مع أنهم بذلوا الغالي والنفيس، وتعرضوا في مكة المكرمة لأشد صنوف العذاب في سبيل دينهم.

فإذا نزل هذا التنبيه الرباني على الصحابة الكرام، فكم علينا أن نسعى كي نبلغ شيئًا من أحوالهم المعنوية التي لا تؤثر فيها المنافع الدنيوية والأهواء النفسانية؟



لا تلقوا بآخرتكم إلى التهلكة

يقول المولى جل جلاله:

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]

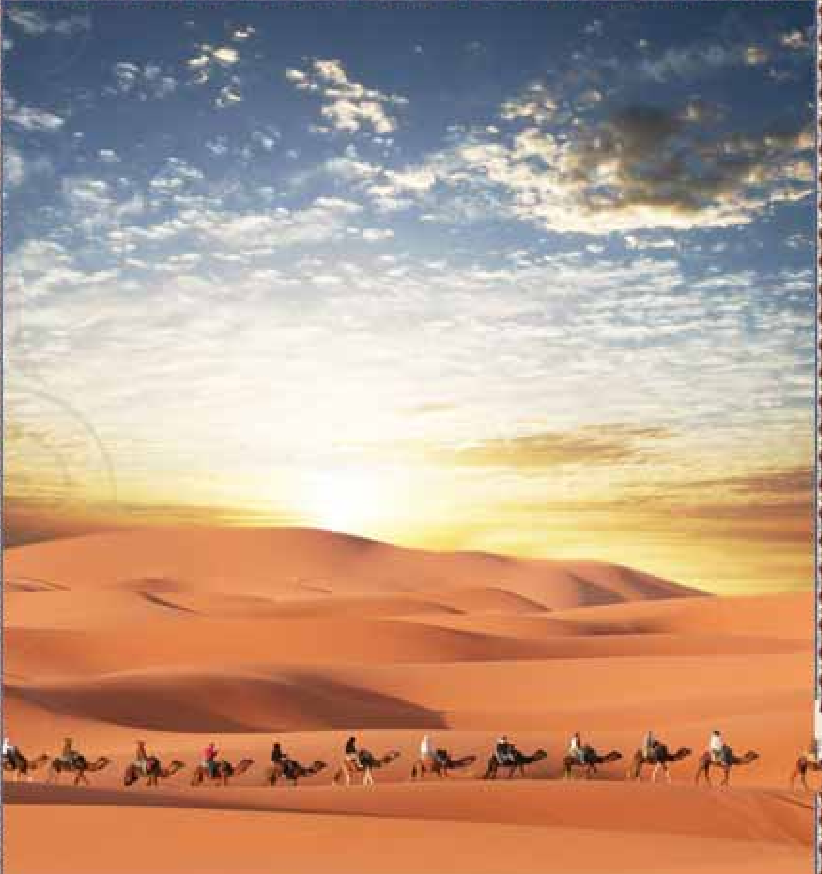
فهو سبحانه وتعالى يحذِّرنا من الخسران في الآخرة بالاغترار بملذات هذه الدنيا وسرابها وزينتها وراحتها والوقوع في الغفلة، في الوقت الذي نستطيع فيه أن ننال رضاه سبحانه بالخدمة وبذل الجهد في سبيله.



الراحة في الموت

يقول الشيخ أبو حاتم البصري:

«إن أخَّرتَ أربعة لأربعة، دخلتَ الجنة: النوم للقبر، والراحة للصراط، والمديح للميزان، ورغبات النفس للجنة».



لا تنم في المحطة

إن الدنيا ليست إلا محطة في الطريق إلى الدار الآخرة، فلا تنم فيها، يقول الإمام الشافعي رحمه الله محذرًا من هذه الغفلة:

«هل من التعقل أن تبني دارًا في طريق القوافل؟».



فلنملأْ مخازننا

إن الذين لم يزرعوا بذور الخير والأعمال الصالحة في بستان الدنيا لن يحصدوا السعادة في الآخرة، مَثلهم كمَثل المزارع الذي لم يبقَ في مخزنه شيء بعد أن تكاسل في موسم الزراعة، فلنسعَ إذًا في سبيل الله سبحانه وتعالى في حياتنا الفانية، لتكون حياتنا الباقية في ظلال رحمته سبحانه وتعالى.



أتباع أبي جهل
يعملون ليل نهار...

كيف لنا نحن- دعاة الحق- أن نكتفي بمساعينا في سبيل الدين، وأن نظن أننا أدَّينا الأمانة، بينما لا يأبه كثير من الناس براحتهم وأموالهم وصحَّتهم في سبيل محبات مؤقتة وأهواء لا طائل فيها، ويسعى أتباع أبي جهل- بكل ما أوتوا من قوة- في سبيل دوام دعوتهم الباطلة؟ وكيف ستبيض وجوهنا بعد أن نُحاسَب على هذا الأمر؟



نِصاب الطاقة

لم يحمِّلنا ربنا سبحانه وتعالى ما لا طاقة لنا به، لكن هذا يعني أننا مكلَّفون على قدر طاقتنا؛ أي إننا سنُحاسَب على فعل الخير الذي لا نفعله إن كنَّا قادرين عليه.



المؤمنون كالشمس

المعرفة الحقيقية إنما هي تحلي القلب بالسخاء والإيثار، وجعل النعم التي أكرمنا الله تعالى بها في الدنيا بضاعةً للفوز في الآخرة، فخير المال إنما هو الذي يُرسَل إلى الآخرة قبل صاحبه، وخير النفوس إنما هي التي تُستعمَل في سبيل رضا الله سبحانه وتعالى.

والذين يستعملون المال والنفس كما ينبغي هم كالشمس يضيئون كل مكان مظلم بأعمالهم الصالحة، وينشرون أنوار الفضيلة والسخاء في القلوب المحتاجة المتعبة.



النظر إلى المخلوقات بنظر الخالق

على المؤمن أن يكون كالنسمات في لطفها، وكالسحاب في سخائها، يبعث الطمأنينة أينما حلَّ، ويسعى لنيل رضا الله تعالى.

لذلك فإن أولياء الله كضوء القمر في الليلة الظلماء، يتحلون بالرقة والإيثار والرحمة والإنفاق والسخاء.



التخلق بالأخلاق التي أمر الله بها

يقول المولى جل جلاله في كتابه العزيز مبيِّنًا رغبته في أن يرى مثل سخائه في عباده:

﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]

لذلك فإن المؤمن الذي يريد أن يعيش بالأخلاق التي أمر الله تعالى بها، عليه أن يسعى لرضاه سبحانه، مُكرِمًا غيره بكل ما أوتي من النِّعم، مادية كانت أم معنوية.



ما قيمته؟

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«ما قيمة الذهب والروح، والياقوت والمرجان، وكل هذه النفائس إن لم تُصرَف على المحبة أو على المحبوب؟».



مهارة استعمال المال

إن نِعم الدنيا كسيف ذي حدَّين، مَن عرفَ استعمالها صارت له زينة، ومن وقع في حبها صارت له خسرانًا وفتنة.

يقول المولى جل جلاله في الآية الكريمة:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]



الشكر الفعلي

الشكر صنفان:

١- الشكر باللسان، بعد معرفة أن النعم كلها من الله سبحانه وتعالى.

٢- الشكر الفعلي، بإعطاء شيء من تلك النعم للمحرومين منها.

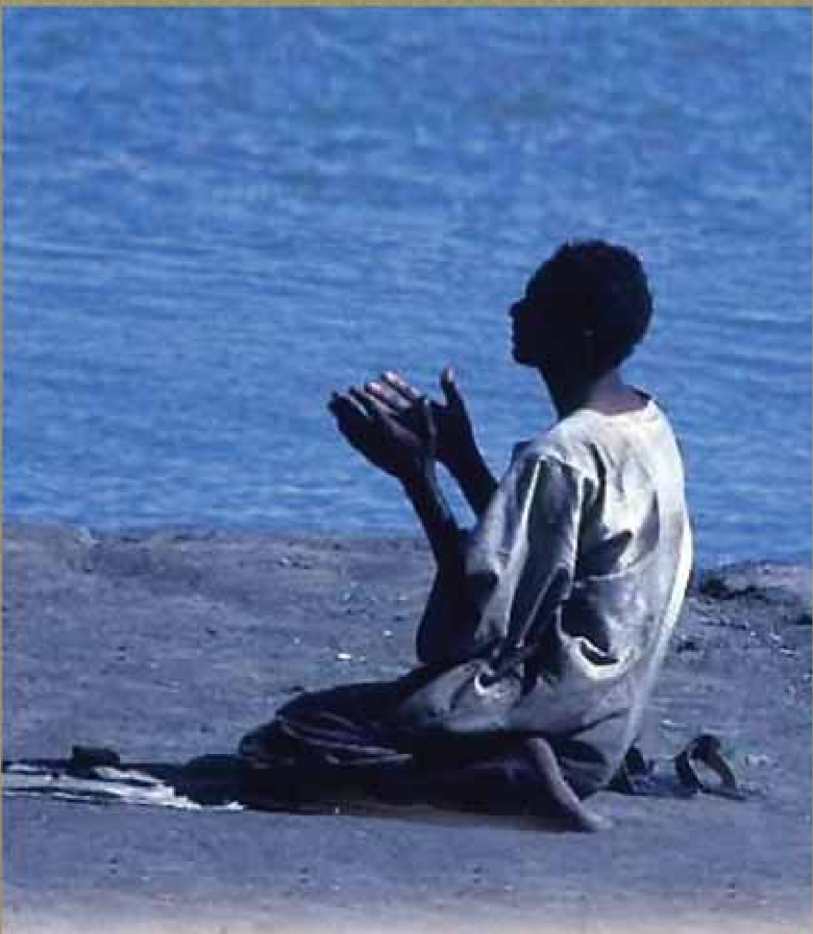
وما أجمل قول الشيخ سعدي الشيرازي:

«إنك إن لم تكن تذهب إلى باب أحد لتطلب شيئًا، فاشكر الله تعالى بألا ترد السائل الذي جاء إلى بابك، ولا تعبس، بل استقبله بوجه طلق».



آداب الإنفاق

المؤمن إنسان كريم، والكرم الحقيقي إنما هو القدرة على الإحسان دون تردد، وإحياءُ القلوب كما تُحيي أمطار الربيع الأرض، والإنفاقُ بتلذذ وطواعية، على المؤمن أن ينفق إنفاق الشاكر لنعم الله تعالى، فيكون حاله كحال الورود التي تنشر عبيرها ليشمَّها كل من يمر بها، وعندها تكون للأعمال الصالحة قيمة عند الله تعالى.



من يحتاج الآخر؟

إن الضعيفَ يحتاج إلى القوي، والفقيرَ إلى الغني، والعليلَ إلى السليم في الدنيا؛ غير أن القويَ يحتاج إلى الضعيف، والغنيَ إلى الفقير، والسليمَ إلى العليل في الآخرة.



آداب الإنفاق

يعبِّر مولانا جلال الدين الرومي عن بركة الإنفاق الذي يكون بأدب وظرافة بقوله:

«أنفقْ مالَك ومُلكك كله، واشترِ قلبًا ليكون نورًا لك في قبرك، حين تمكث وحيدًا هناك في ظلام حالك».

فكما أننا لا نمنع المحتاج عن أموالنا أثناء الإنفاق، علينا ألا نبخل عليه بالتبسم واللطف.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

[البقرة: ٢٧٢]



إياك وإيذاء المسكين

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«إن جاء مسكين إلى بابك، فلا تردَّه خاوي اليدين، وليحفظك الله من يوم قد تمسي فيه مسكينًا تأتي الأبواب».

«إذا أحسنتَ إلى أحدهم فلا تتكبر بقولك: (أنا سيد، وهذا يحتاج إلي)! ولا تقل: (ساءَه الدهر!)، فالسيف الذي ضربه ما زال خارج غمده، وقد يضربك يومًا ما».



المال الحلال

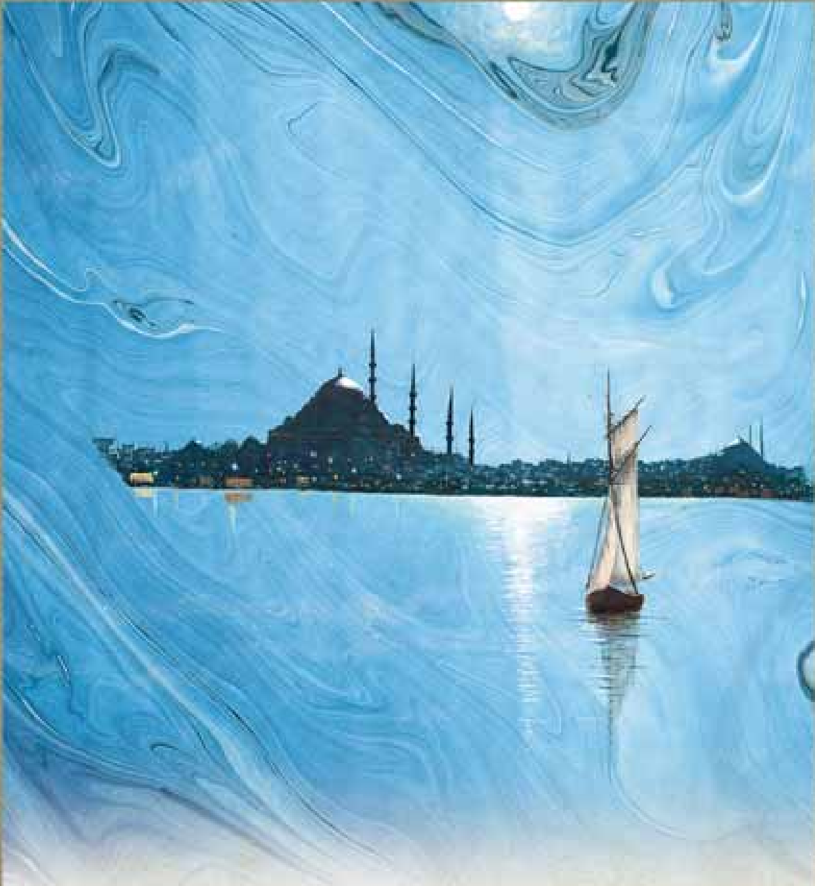
المال يجذبك إلى حيث كسبْتَه، والمال كالحيَّة تعود إلى جحرها الذي خرجتْ منه، والربح الحلال يكون وسيلة للخير والفضائل، أما الربح الحرام فيضيع في سبل الشر؛ لذلك فإننا نستطيع أن نعلم حِلَّ المال بالنظر إلى الأماكن التي يُصرَف فيها.



قدَر المال

إن قدَر المال قد يتدخل في قدَر المرء، فكل إنسان يظن أنه يستطيع صرف ماله حيثما أراد، لكن المال يميل إلى حيث يليق بالحال المعنوية التي كُسِبَ فيها، فيوجِّه بذلك إرادةَ صاحبه؛ أي إن السلطة غالبًا ما تكون للمال، لا لصاحبه...

وترى ذلك الذي يدخل في جيبه مال من حرام فاسدَ العمل والنية، فعلينا أن ننتبه أشد الانتباه إلى كسب المال من الطريق الحلال كي ننعم بالطمأنينة المادية والمعنوية.



عدم تجاوز حدود الحلال والحرام بأعذار واهية

الربح بلا حق كالفُقاعة في يد الإنسان، فبعض الناس تنفجر فقاعاتهم في الدنيا وبعضهم يوم الحشر، والزيادة الظاهرة في الربح الحرام قد تُسِرُّ الإنسان، لكن جانبها المعنوي خسران وإفلاس أبدي من أوله إلى آخره.



سبب الشعور بالضيق

من المعلوم أن سبب ما يشعر به الإنسان من ضيق في صدره في هذا الزمان إنما هو الربح غير المشروع، والاعتداء على حقوق العباد، وعدم القناعة، والحرص، فإذا أراد الإنسان أن ينجو من هذه الأعمال والصفات السيئة، فعليه مراعاة الأحكام الإسلامية التي تحذِّر دائمًا من الاعتداء على حقوق العباد، وتحث على الربح الحلال.

فكما أنه من الضروري تنقية أطنان كثيرة من التراب للحصول على غرام واحد من الذهب، فإن الربح من الحلال في الظروف الاقتصادية في أيامنا هذه يُوجِب علينا سعيًا كبيرًا ودقةً وانتباهًا.



جنون الإسراف

نرى كثيرًا من الناس في هذه الأيام يسرفون في المأكل والمشرب إسرافًا ترتعد منه الفرائص، لا سيما في الضيافة وحفلات الزفاف، إن إعدادَ ضيافات كبيرة للتكبر والزهو والتفاخر، والحثَّ على النهم بتقديم طعام في مائدة مفتوحة، ولبسَ ثياب من شركات ذات علامات تجارية معروفة من أجل التفاخر، كلها أمور ستنقلب حسرة وندامة على صاحبها في المحشر لا محالة، فالله تعالى سيُحاسِب عبده على كل صغيرة وكبيرة يوم الحساب.



ما يبقى من المال

إن المؤمنين لا ينسون الحقيقة التالية البتة:

«للحلال حساب، وللحرام عذاب».

ويقول عبد الرحمن الأوزاعي رحمه الله تعالى:

«المال الحلال ينتهي، والمال الحرام ينتهي... لكن يبقى الثواب أو العقاب منهما».



سرطان الثروة: الإسراف والبخل

إن المُلكَ لله سبحانه وتعالى، والإسرافُ أن يبذل الإنسان المالَ الذي استودعه الله تعالى أمانةً عنده لوقت معلوم، على نفسه فحسب، والبخلُ أن يجمع المال من أجل نفسه؛ والإسراف والبخل هما اللذان يحوِّلان السعادة في دار القرار إلى عذاب أبدي.



الاقتصاد في كل شيء

يقول الشيخ موسى أفندي رحمه الله تعالى:

«يا أولادي عليكم بالعيش في حال رياضة [بمراعاة الاقتصاد في كل شيء] وإنفاق ما وهبكم الله إياه في سبيله، ولا تكن رياضتكم في الشهور الثلاثة [رجب وشعبان ورمضان] فحسب، بل اجعلوها في كل صفحات حياتكم، وأنفقوا في سبيل الله تعالى ما يزيد عن حاجتكم.

واعلموا أنكم حتى لو عشتم في قصر (دولما بهشة) أو قصر (طوبكابي)، فإنه عليكم العيش هناك في رياضة أيضًا [بالحذر من الإسراف والبخل]، لذلك احرصوا على جعل أموالكم خارج قلوبكم».



مقياس الغنى الحقيقي

ليس مقياس الغنى الحقيقي كثرة المال وامتلأ مِحفظة النقود، بل القناعة والإنفاق بصدق.

فالذي يكون قلبه غنيًّا لا يضره خلو محفظته، والذي يكون قلبه فقيرًا لا ينفعه امتلاؤها.



قيمة الإنسان على قدر تقواه

كم يؤسفنا حينما نرى أن قيمة الإنسان باتت تُقاس بماله وملكه في بعض الأوساط التي دأبت على تقييم كل شيء بفكر مادي في هذه الأيام التي تنتشر فيه عدوى المادية والتعلق بالدنيا، ودليل ذلك ما نراه في الأعراس والأفراح والمآتم، مع أن مقياس شرف الإنسان وعزَّته إنما هو قدرته على الحفاظ على شخصيته الإسلامية؛ أي إيمانه وتقواه وأخلاقه الحسنة.



كي لا تكون القلوب صندوقًا للمال

إذا أعطيتَ الإنسانَ الأرضَ كلها، يقول: «أليس في القمر جزء لي؟»، ذلك أنه لا نهاية لرغبات النفس وأهوائها، وطمأنينة القلب إنما تكون بالقناعة والرضا والشكر.

والمال أمانةُ الله تعالى عندنا، فلا تكن قلوبنا صندوقًا للدنيا، بل علينا أن نسعى لنجعلها تتسع للآخرة.



الحج المبرور

يقول رسول الله ﷺ:

«مَن أمَّ هذا البيت من الكسب الحرام شَخَصَ في غير طاعة الله، فإذا أهلَّ ووضع رجله في الغَرْز أو الرِّكاب وانبعثت به راحلته قال: لبيك اللهم لبيك، ناداه مناد من السماء: لا لبيك ولا سعديك، كسبك حرام، وزادك حرام، وراحلتك حرام، فارجع مأزورًا غير مأجور، وأبشرْ بما يسوؤك». [الهيثمي، جـ٣، ص٢٠٩-٢١٠]



جوز فارغ

كم من نِعمٍ دنيوية يتصارع عليها الناس ما هي في الحقيقة إلا كجوزٍ فارغ، حينما يصحو الإنسان من غفلته في هذه الحياة الدنيا بصفعة الأجل، سيفهم عندئذ قِصَر هذه الحياة وزوالها، وسيندم على تلك المشقات التي كابدها من أجل هذه الحياة الفانية. وا أسفاه حينما نرى الناس كأن بعضهم سيأكل بعضًا من أجل أشياء سيندمون عليها في القبر.



الماء الجاري

يقول الشيخ سعدي الشيرازي رحمه الله تعالى:

«لا تظننَّ أنك ستعلو بجمعك المال، فالماء الراكد رائحته كريهة منتنة، عليك بالصدقة، فالماء الجاري تعينه السماء حين يهطل المطر، فينجو من الجفاف».



الربح المُضاعَف
والخسارة االمُضاعَفَة

يقول لقمان الحكيم:

«ضحِّ بالدنيا من أجل الآخرة، تربح الاثنتَين، ولا تضحِّ بالآخرة من أجل الدنيا، كي لا تخسر الاثنتَين».



أشد الحماقة

إن خسران الدرجة العالية عند الله تعالى، بالاغترار بلذات الدنيا الخدَّاعة، حماقة كحماقة استبدال قطعة ذهبية مزيَّنة بأندر الجواهر بقطعة نحاسية لا قيمة لها.

ويبيِّن لنا مولانا جلال الدين الرومي انخداع الإنسان بقوله على سبيل التشبيه:

«إننا لا نعجب من فرار الحمل من الذئب، فالذئب عدو الحمل، لكن العجيب أن نرى الحمل متعلِّقًا بالذئب ويسلِّمه روحه».



﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣]

لا بقاء لهذه الدنيا، فاذكُر الآخرة!

مَن يعطي الفاني ويربح الباقي عاقل، ومَن يبيع الآخرة ويغتر بالدنيا غافل، أما مَن يبيع آخرته من أجل دنيا غيره فهو أحمق!

لا قيمة عند الله تعالى لمَن ينسى الآخرة بانجراره إلى شهوات الدنيا، التي لا تساوي قيمتها عند الله جناح بعوضة.

وما أجمل قول أحد أولياء الله:

«لا تطلب العيش الأبدي من الدنيا، ففاقد الشيء لا يعطيه».



لا تغتر بالدنيا

أيها الغافل الذي يغتر بالدنيا وثرواتها الفانية بنسيان سر الامتحان الحقيقي!

إياك أن تثق بالقصور والأبنية التي شيَّدتها! فمصيرك إلى ذلك التراب الأسود، وتلك القصور الواسعة العالية الفاخرة ستبقى هنا وستنام في بيتك تحت التراب وحيدًا عاجزًا، ولن يكون معك إلا أعمالك التي أتيت بها من الدنيا.



اعتبرْ ولا تكن عِبرة!

يقدِّم التاريخ بصفحاته البيضاء وبمشاهد الظلم الوحشي فيه عِبرًا عظيمة للبشر، والشمس التي كانت يومًا تشرق على قصور فرعون وهامان ونمرود، وقوم عاد وثمود، وعلى دورهم التي بنوها، فتنيرُ ساحاتِها وأعمدتها وأروقتها، إنما هي نفسها التي أشرقت على خرابها وأطلالها؛ لكن أين أولئك الذين كانوا يبعثون فيها الحركة والحياة؟



أفضل الربح

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«العاقل مَن يحمل معه أمواله إلى الآخرة، [أي ينفقها في سبيل الله قبل أن يفارق الدنيا]، لكن البخلاء يرحلون من هذه الدنيا تاركين أموالهم وراءهم متحسِّرين عليها».



كنز في الأحلام

يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله تعالى:

«إن الحياة الدنيا كلها مثل حلم، وإن كنتَ ذا مال فيها فأنت كمن يجد كنزًا في أحلامه، فمال الدنيا يبقى في الدنيا متنقلًا من جيل إلى آخر».

«إن مَلَك الموت يوقِظ الغني الغافل من نومه حينما يأخذ روحه، فيندم حينها لمَا عاناه من مشقات ومصائب في الدنيا كي ينال تلك الأموال التي لم يكن يومًا صاحبها الحقيقي، لكن قُضِيَ الأمر، ولات ساعة مندم».



ثروة الآخرة

إن الذين يمرون من هذه الدنيا- سواء أكانوا عبيدًا أم سلاطين- بضاعتُهم في الآخرة ما حملوه من الدنيا؛ ففي تلك الدار يُوضَع الميزان ليفصل في كل شيء، وترى هناك كثيرًا من المحرومين في الدنيا يفوزون بالدرجات العلى، وكثيرًا من أغنياء الدنيا يبيتون فقراء محتاجين، في تلك الدار لا ينفع العبد إلا قلب سليم، وصدقة مقبولة، وعمل صالح.



الدرهم الحقيقي

«أيها الصرَّاف البخيل، اجعل لنفسك كيسًا مختلفًا واجمع ما ينفع من الدراهم في القبر».

نجيب فاضل قيساكوراك



النعمة التي لا تُعرَف قيمتها

الحياة بغفلة إنما هي الحياة المليئة باللعب في الطفولة، والشهوةِ في الشباب، والضياعِ في الرشد، والحسرةِ والندامة في الشيخوخة على ما فات.

وكم يؤسفنا حينما نجد أن قليلًا من الناس يدركون قيمة النِّعم التي بين أيديهم قبل أن يُحرَموا منها. وأكثرُ الذين يأسفون على هدر الشباب ثروةَ شبابهم بجهل وبلا مبالاة إنما هم من الشيوخ الذين فهموا قيمة تلك النعمة التي فقدوها، لذلك قيل: «ليت الشباب يعلمون، وليت الشيوخ يعملون».



اعلمْ قيمة وقتك

إن الحياة نعمة عظيمة القيمة وهبها الله سبحانه وتعالى لكل مخلوق ليستعملها مرة واحدة في وقت محدد، فلا بد من ملْءِ الأوقات بالأعمال التي تليق بقيمتها، ذلك أنك لا تستطيع أن تُعيرَ الوقت ولا تستعيره، وقد تقدر على شراء أي شيء، لكن شراء الوقت محال...

فاعلمْ قيمة الوقت، كي لا تشعر بالحاجة إلى تغيير أي شيء في مخطط أعمالك حتى لو قيل لك: «غدًا ستموت».



يوم في الدنيا

يقول جنيد البغدادي رحمه الله تعالى:

«يوم في الدنيا خيرٌ من ألف سنة في الآخرة، لأنك تستطيع أن تنال رضا الله تعالى في يوم من أيام الدنيا، أما في الآخرة فلن تستطيع أن تعمل الصالحات كما في الدنيا، فليس هناك إلا حساب لحياتك في الدنيا».



الإسراع في عمل الخير

يقول الله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿وَالْفَجْرِ﴾، فهو يفتح لنا صفحةً جديدةً من تقويم العمر مع كل فجر، فكيف سنملأ هذه الصفحة؟ وكم سنعمل من أجل أنفسنا كل يوم؟ وكم سنُؤْثِر على أنفسنا ونكون بجانب المحرومين والمساكين؟ وكم سنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر بأحوالنا وأقوالنا؟ وماذا ستكتب الملائكة في سجل أعمالنا اليوم؟

فالمؤمن يقضي وقته بأفضل الأعمال مدركًا هذه الحقائق بقلب رقيق.



قبل أن يمر الوقت وتغرب الشمس

إن الذي يدرك وجود الموت لا يغتر بلذائذ الدنيا الفانية، والذي يعلم مسير رحلته في هذه الدنيا لا ينخدع بالمُلهيات فيها!

ما فائدة النعم الفانية لو اجتمعت في الإنسان وعاش ألف عام في لذة وصفاء؟! أليسَ مآله إلى تلك الحفرة الضيقة، تحت ذلك التراب الأسود؟

إن الحياة التي يعيشها الإنسان دون أن يتذكر الآخرة ليست في الحقيقة إلا خسرانًا أبديًّا حتى لو عاش في سعادة وقوة وجاه.



بلاغة الموت

إن كانت رطوبة تراب المقابر وصلابة حجارتها هي الجواب الوحيد للسؤال الذي يتبادر إلى ذهن الإنسان حين يُسأَل: «ما الحياة؟»، فما الشيء الأَمَرُّ والأشقى من هذه الحياة القصيرة التي تضيع في غفلة؟

وكم من مشهد في الدنيا يعظك ويذكِّرك بالموت؛ منها الواعظ الصامت كمشهد الجنازات، ومنظر القبور، وزرقة شفاه الموتى، ولمعات دموع الثكالى على وجناتٍ فقدت بريق الحياة، وأطفأ بهجتها ظلام انقطاع الروح عن المحبوب.



لا تغرنَّكم الحياة الدنيا

إذا أدركنا أن الكفن إنما هو الثوب الحقيقي في الحياة، كففنا عن البيع والشراء من أسواقها، فأبداننا ستمسي ترابًا بالأكفان، لكن أعمالنا ستبقى؛ أي إن أعمالنا ستكون رفيقنا في دربنا نحو الآخرة.

وإذا كان الإنسان يعيش حياته- التي هي أشبه بسراب خادع- بلا خشية من الحساب، فإنه كمَن يظن أنه لا ليل بعد النهار!. يقول المولى جلَّ جلاله:

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥]



حِكم نتعلمها من التراب

إن هذا التراب الذي نسير فوقه يرى فيه أهل القلوب عبرًا عظيمة:

فهذا التراب مليء بأبدان أولئك الذين عاشوا من آدم عليه السلام إلى يومنا هذا، وكأنها مليارات من الظلال بعضها فوق بعض...

وستأخذ أبدانُنا أيضًا يومًا ما مكانها في أحضان ذلك التراب المليء بالأسرار!

وما هو هذا العالَم إن لم يكن مكانًا تجتمع فيه الأجيال الماضية والقادمة؟ فعلينا أن نسعى لنكون طلبةً مخلصين من أهل القلوب في هذه المدرسة المليئة بالعِبر.



التفكر بالموت

إن المقابر في نظر الغافلين ليست إلا حقولًا مليئة بالأبدان، أما في نظر المؤمنين العارفين فهي أماكن مليئة بالعِبر والحِكم.

لذلك كان الناس في الماضي يجعلون المقابر داخل المدن أو قريبةً من المساجد، كي يترحَّم الأحياء على الأموات، وتكون وسيلة ليتفكروا في الموت ولا ينسوا مآلهم.



دروس بلا كلمات

ليس للموت لسان معلوم، لكن ما أكثر المعاني العظيمة التي دفنها في صمته العميق، إن الموت درسٌ يبيِّن- بلسان حاله- الحقائقَ والحِكم والعِبر للذين استفاقوا من غفلتهم.



الكذب في المرآة

يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله تعالى:

«أيها السالك، انظر إلى المرآة! تفكرْ في القبح حينما يشيخ الجَمال، وفي الخراب حينما تُهدَّم الدور، لكي لا تغتر بالكذب في المرآة!».

«أنتَ يا مَن تُعجَب بجمال الربيع، انظر أيضًا إلى اصفرار أوراق الخريف وسقوطها».



الخشية من الأنفاس الأخيرة

لا أحد يضمن خروج أنفاسه الأخيرة بإيمان إلا الأنبياء، لذلك على المؤمن أن يحيا حياته في كل لحظاتها ساعيًا لتمثُّل الكتاب والسنة، وأن يدعو اللهَ تعالى بدعاء سيدنا يوسف عليه السلام إذ قال:

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]



الحجاب الرقيق
بين الحياة والموت

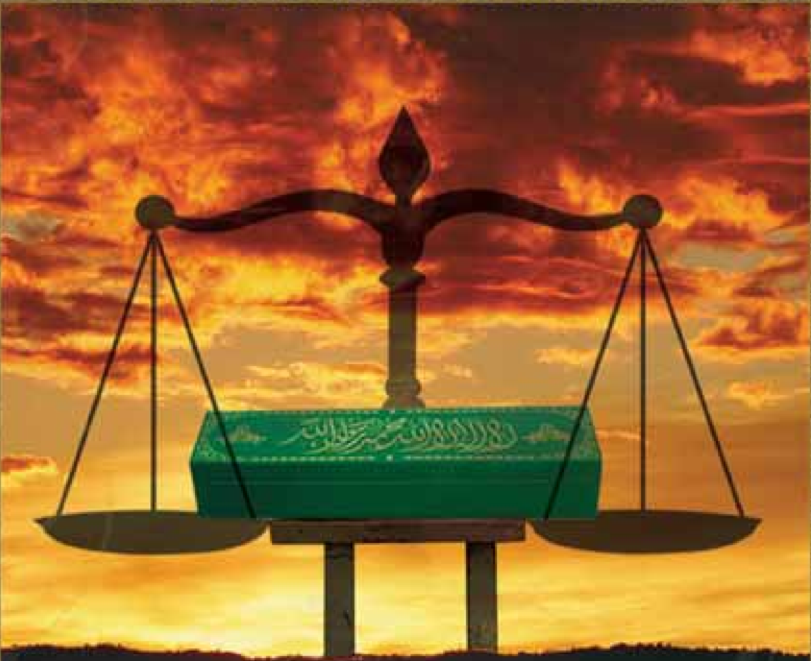
إن الإنسان يواجه الموت مرات كثيرة في حياته، فهو يتعرض للأمراض والمصائب والمفاجآت والأخطار في كل لحظة لكنه لا يتعلم الدروس منها في كثير من الأحيان لغفلته وعجزه، أفلا يُظهِر ذلك كله الحجابَ الرقيق الذي يفصل الإنسان عن الموت؟



محاسبة النفس

علينا عندما نرى جنازة أحدهم أن نقول: «كان من الممكن أن أكون اليوم في هذا التابوت»، فنحاسب أنفسنا حسابًا دقيقًا.

وعلينا أن ندركَ أن ما نراه في الجنازة من تغسيل للميت والصلاة عليه ودفنه سيُطبَّق علينا أيضًا يومًا ما.



الحجاب الأخير

إن الأنفاس الأخيرة التي تُعدُّ الحجاب الأخير في الحياة كالمرآة الصافية المصقولة التي تعكس عاقبة كل إنسان، وكلٌّ منا يرى بوضوح في هذه المرآة أيام عمره كلها، حلوها ومرها، محاسنها ومساوئها، عندئذ يُرفَع حجاب الغفلة أمام الأعين والآذان، بل تزول كل الحجب، ويعترف الإنسان بما فعل، ويندم ندمًا شديدًا، فحذارِ أن تكون أنفاسنا الأخيرة مرآتنا الأولى التي نشاهد فيها حياتنا ونتفكر فيها.



براعة

«البراعة أن تقول: أهلًا بك، لعزرائيل حينما تُرفَع الحُجُب».

نجيب فاضل قيساكوراك



كيف ستكون حالنا عند مجيء الأجل؟

كيف ستكون حالنا يا تُرَى إذا حانَ موعدنا الذي لا مفر منه مع مَلَك الموت؟ هل سيأتينا ونحن في حال سجود؟ أم في عمل لا يرضاه الله تعالى؟

فعلينا أن نتفكر كثيرًا في هذا الأمر، ونتساءل: ما الجملة الأخيرة التي سننطق بها؟



الموت قبل الموت

إذا استطاع العبد أن يتخلَّص من أنانيته في هذه الحياة الدنيا، وسار في الطريق الذي توجبه صفات روحه الملائكية؛ أي إذا استطاع الوصول إلى سر قولهم:

«موتوا قبل أن تموتوا»، فسيعلم أن الموت إنما هو الخطوة الأولى التي لا مناص منها للوصال مع ربه العظيم المتعالِ.



ليلة العرس

إن تحويل الموت من خسران إلى فوز أبدي، وجعله كليلة عرس لا ليلة مأتم، إنما هو عمل أولئك الذين تهيؤوا للمكان الذي يرغبون به بعد الموت، فعرفوا كيف يموتون.

يقول عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

«أعدُّوا لما تريدون أن تكونوا عليه في الآخرة».



كما تعيشون تموتون

يقول عبيد الله أحرار رحمه الله:

رأى رجل الشيخَ نقشبند بعد وفاته في منامه، فسأله عن عمل تكون المواظبة عليه سببًا لنجاته.

فقال الشيخ:

«اشتغل في صحتك بما تشتغل به في النفَس الأخير»

يعني كما أنه ينبغي أن يتوجه في النفَس الأخير إلى الله سبحانه بكليَّته ويكون حاضرًا به وناظرًا إليه، كذلك ينبغي أن يكون دائمًا على هذه الصفة. [رشحات: ص٩٩]



إلى أين المسير؟

يقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]

يريد الله ﷻ منَّا ألا ننسى يوم القيامة وأهوالها، ونفهم من الآية الكريمة أنه يحذرنا بقوله:

كيف تحيون وكأنه لم يأتكم خبر ذلك اليوم المهيب؟ كيف تحرصون على أشياء فارغة دنيئة في الدنيا؟ كيف تعيشون أعمارَكم في غفلة و هي أغلى ما عندكم؟



الحياة الحقيقية

جلس الصحابي ابن مسعود ﵁ يومًا إلى جماعة من التابعين فقال:

«إنكم تصومون وتصلون أكثر من صحابة رسول الله ﷺ، وتكثرون من الأعمال الصالحة، لكنهم خير منكم».

فقالوا: «وكيف ذلك؟»

فقال: «كانوا أكثر منكم زهدًا في الدنيا، ورغبةً في الآخرة».



المصيبة الحقيقية

يقول الإمام الرباني السرهندي رحمه الله تعالى:

«ليس الموت هو المصيبة، بل المصيبة الجهل بما سيلقاه الإنسان بعد الموت».

فلا ينفع الفزع من الموت والهرب منه، وإنما الحماقة الكبرى في التغاضي عنه والسعي لنسيانه.



آخر صفحات تقويم العمر

كل إنسان في هذه الدنيا له تقويم لا يُرى، وثمة يد خفية تُسقِط صفحة من ذلك التقويم كل يوم.

ويخبِّرنا الله سبحانه وتعالى عن النداء الذي سيسمعه الإنسان لحظة سقوط الصفحة الأخيرة من تقويم عمره بقوله:

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]



لون الموت

تبدأ السعادة في الدارَين حين يستطيع الإنسان خلال عمره القصير أن يحل لغز الموت،. فالموت طامَّةٌ عظيمةٌ لمَن لم يتخلص من أسر النفس، ولحظةُ بدء السعادة الأبدية للمؤمنين الصالحين الذين استمعوا للقرآن الكريم وأنصتوا.

يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله:

«يا بني، موت كل إنسان من لونه».

«يا مَن تخشى الموت وتفر منه، إذا أردتَ الحق فاعلم أنك لا تخشى الموت، بل تخشى من أحوالك وأعمالك. فما تراه في مرآة الموت وتفزع منه ليس وجه الموت، بل الوجه القبيح لعالَمك الداخلي».



موعد الأجل مجهول

إن التراب الذي نسير عليه اليوم سنغدو جزءًا منه غدًا، فعلينا ألا نغتر بالملذات الفانية والأهواء النفسانية ونحن فوق التراب كي لا نقع في الذلَّة تحته.

وعلينا ألا نعيش في هذه الدنيا وكأننا خالدون فيها، بل نتذكر دائمًا أننا مسافرون قد نُدعَى للسفر في أي لحظة، وأن لنا مع عزرائيل عليه السلام موعدًا لا نخلفه، ولا نعلم زمانه ولا مكانه.

ولا ننسى أنه ليس ثمة زمان ولا مكان نهرب إليهما من الموت في الدنيا، ولا طاقة لنا للرجوع إلى الدنيا في القبر، ولا ملجأ نلجأ إليه من أهوال يوم القيامة.



لا تنسَ أنك فان

إن نسيان الموت يعني نسيان نفسك، والقضاء على مستقبلك الأبدي. وأيام السرور في هذه الحياة تخفي وراءها وجه الموت الكئيب. ولا بد من التذكر دائمًا أن القلب كأنه صندوق بريد ينتظر خبر الأجل الذي سيأتي من بريد الغيب.



اليوم الذي ليس له غد

هذه الحياة كالبَكَرَة التي لا يُعلَم طولها، فلا تدري متى ستنقطع بك أو تتلاشى من يدك، فكل مولود مرشَّح للموت أيًّا كان عمره.

وبعد خروج الأنفاس الأخيرة لن يكون هناك توبة وعفو، ولا مسامحة ولا ردٌّ للحقوق إلى أهلها، لذلك لا بد من اغتنام هذا اليوم، فلا فرصة بعد الفرصة التي بين أيدينا.

وقد قيل: «هلكَ المسوِّفون»، لأن كل يوم من أيام حياتنا قد يكون اليوم الذي لا غد له.



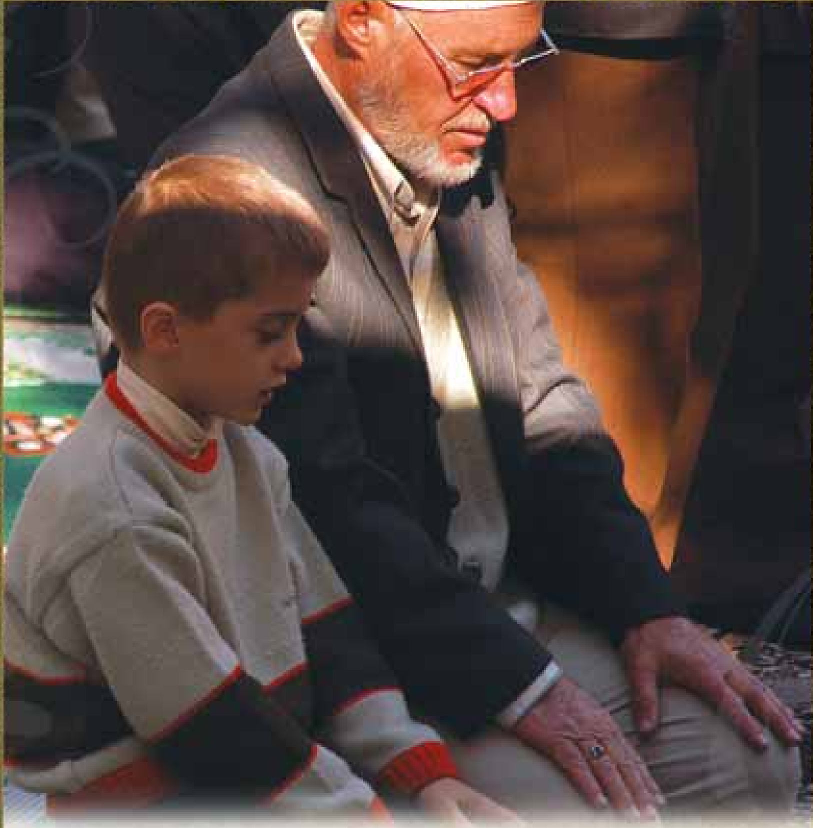
حق العبد:
الحق الذي لا يعفو عنه الله تعالى

يقول المولى جلَّ جلاله في كتابه العزيز:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]

ويقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف:

«مَن كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء، فليتحلَّله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أُخِذَ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أُخِذَ من سيئات صاحبه فحُمِلَ عليه». [البخاري، المظالم ١٠، الرقاق، ٤٨]



شريط حياتنا

علينا ألا ننسى أننا- ونحن نتنفَّس تلك الأنفاس التي هي أثمن بضاعتنا- نحيا تحت مراقبة الله تعالى في كل لحظة، وأن جميع أعمالنا، خيرها وشرها، تُسجَّل في صحائفنا. وسنرى يوم القيامة شريط حياتنا الذي ملأناه بعد أن يأتينا أمر: ﴿اِقْرَأْ كِتَابَكَ﴾، عندئذ سنعلم من جديد أنفسنا بصورة أوضح.



الاستعداد للآخرة

ألا ترى أن الثلج يتساقط في كل شتاء فلا يبقى أثر للورود والنباتات، وتُدفَن البذور وحيدة تحت التراب طوال الشتاء، ثم يأتي الربيع فيُحيي الله تعالى تلك البذور جميعها، فتغدو الأرض كأنها بستان من الجنة.

واعلمْ- كما قال سيدنا علي رضي الله عنه- أن هذه الحياة الدنيا كالنوم، فإذا مات الناس انتبهوا، فأَعِدَّ جيدًا لوقت الصحوة.

وحذارِ أن تغتر بالورود البرية التي تنمو على أرصفة الشوارع والتي ستموت تحت الأقدام لا محالة، ولا تنسَ أن الله تعالى هو الذي يمنحك المستقبل.



الوفاء الحقيقي

إن مال الدنيا الذي سينفعنا إنما هو الذي نرسله من الآن إلى الآخرة بإنفاقه.

والأولاد الذين سينفعوننا إنما هم الذين نربيهم في سبيل الله تعالى، ويكونون صدقة جارية بعدنا.

والأصحاب الذين سينفعوننا إنما هم الذين نحبهم في الله، ويكونون إخوة لنا في الضيق والشدائد.



الذكرى الخالدة في الفؤاد

إن الحرص على الجمال الباقي، والنجاة من براثن المغريات المؤقتة، أفضلُ خصلة للعبد الذي تمضي أيام حياته بسرعة في هذا الحياة الفانية، مثل الشجرة التي تتساقط أوراقها ورقة بعد ورقة في الخريف.



الأحياء في القلوب

إن أولياء الله لا يُنسَى ذِكرهم في صفحات الماضي حتى بعد أن تُسجَّى أبدانهم الفانية في التراب، لذلك فإن آثارهم التي وضعوها حصيلةً لعلومهم ومعارفهم ستبقى إلى الأبد.

وكثيرٌ من أولياء الله الذين تستمر خدماتهم في هذه الدنيا وهم في عالم البرزخ يحيون في قلوبنا ويرشدوننا، وبعد أن نموت سيظلون يحيون في القلوب بإرشاداتهم.



المحبوبون لا يموتون

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«لا تبحثوا عن قبورنا في الأرض بعد موتنا، فقبورنا في قلوب العارفين».

والحق أن مولانا جلال الدين ما زال يحيا في قلوب المؤمنين منذ سبعمئة عام، بإرشاداته المعنوية وكتبه التي يأتي (المثنوي) في مقدمتها.



أصل الوِلاية

إن أولياء الله سبحانه وتعالى أمثال بهاء الدين نقشبند وعبد القادر الجيلاني ومولانا جلال الدين الرومي ويونس أمره وعزيز محمود هُدائي، كلهم سيظلون أحياء في قلوب الناس إلى الأبد. أحبُّوا وكانوا محبوبين، وتركوا أثرًا لا يُمحى في أفئدة الناس.

أما فرعون ونمرود وأبرهة وهولاكو وأمثالهم من الظَّلمة في الماضي والحاضر، فقد كانوا أعداء للناس ووصمة عار على جبين الإنسانية، لم يكونوا محبوبين يومًا، وظلوا في صفحات التاريخ رمزًا للظلم، بعد أن زال سلطانهم وباؤوا بالخسران العظيم.

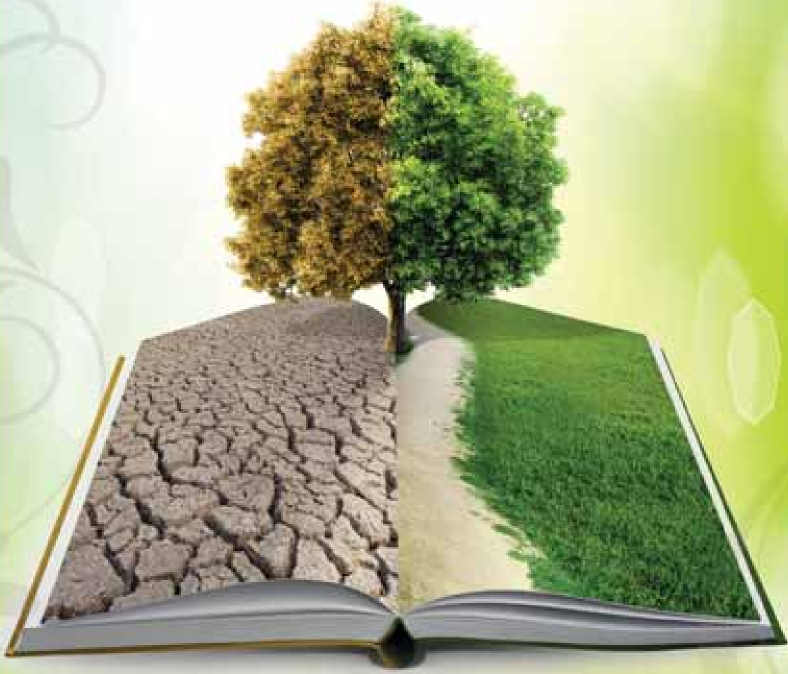


كن ممن يشتاق إليهم الناس

يقول سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

«كونوا مع الصالحين والصادقين والزموهم [حتى تنتقل أحوالهم إليكم]، فيشتاق إليكم الناس في الحياة، ويحزنوا عليكم بعد الممات».

وطوبى لمَن يترك وراءه أثرًا حسنًا في هذه الدنيا...



حسن الخاتمة

كان من دعاء سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

«اللهم اجعل خير زماني آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم لقائك».

فهرس